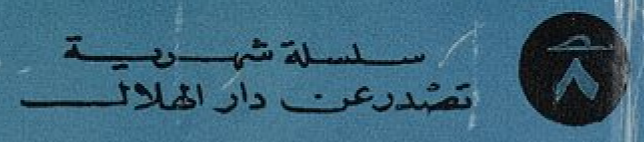
كتاب الهلال

حديث رمضان

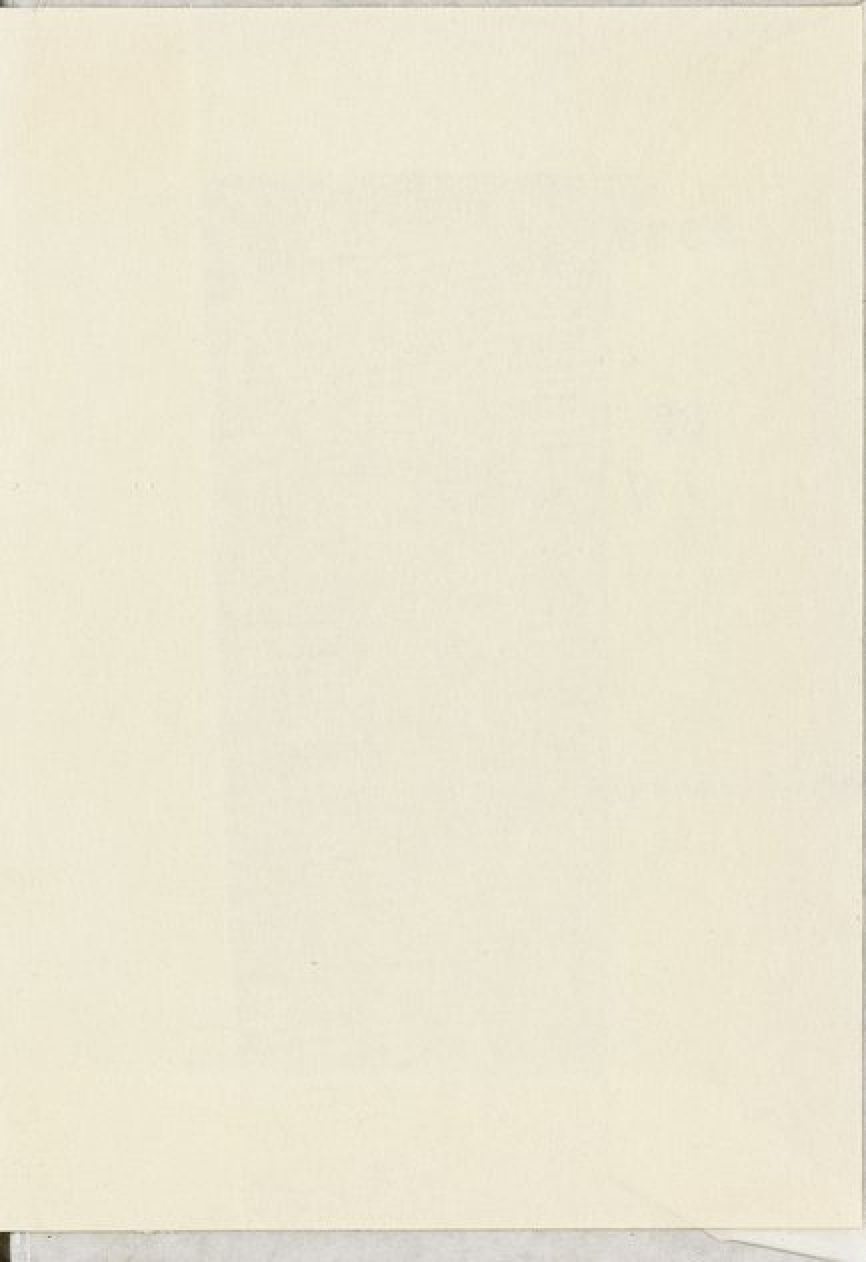
للأستاذ الإمام

الشيخ محمد مصطفى المراغي










Princeton University Library
32101 057501072



حديث رمضان

تفسير جامع لخمس سور من القرآن الكريم ، وهى :
الفرقان • ولقمان • والحجرات • والحديد • والعصر

للأستاذ الإمام

الشيخ محمد مصطفى المراغى

دار الهلال بمصر

كلمة الأستاذ الامام فى تقديم تفسير القرآن الذى اشتمل عليه هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

لله الحمد فى الأولى والآخرة ، وعلى خاتم أنبيائه أفضل صلواته

ها هو ذا تفسير لبعض سور الذكر الحكيم ، يسره الله لى كتابة والقاء فى شهر رمضان ، وما هو الا ثمرات من غراس أسلافنا الأولين ، وزهرات من رياضهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .
وكل ما أرجوه أن يضعه الله سبحانه فى كفة الحسنات من ميزان الأعمال ، وأن يجعله لى ضياء ونورا يسعى بين يدى ، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

والله حسبنا ونعم الوكيل

محمد مصطفى المراغى



مقدمة

بقلم معالى أحمد مرتضى المراغى بك

ترددت كثيرا حين طلبت الى دار الهلال أن اكتب مقدمة هـذه الدروس الدينية التى كان يلقيها المغفور له الشيخ المراغى فى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ملك مصر وكان يستمع اليها فى المذياع ملايين المسلمين

ذلك لأن الشيخ المراغى ابى . وعسير أن يقدم الابن للناس اباه . ولكنى وجدت أن للمراغى أبناء آخرين لايدركهم الحصر ، هم تلاميذه ومريدوه ، وان صلة الروح بينه وبينهم لاتقل عن صلة الرحم بينه وبينى ، وان الكثيرين منهم يودون لو اتيح لهم أن يكتبوا عن الشيخ شيئا كثيرا . فقلت : ما على لو لبيت دعوة الدار ، فأدليت بدلوى ، وساهمت بقدر ما يسمح به قلمى القاصر عن ادراك نبل الغاية ، وبيانى العاجز عن ان يركض فى ميدان من كان بيانه السحر الحلال . وانى لأذكر كيف كان والدى يحضر دروسه ، وكيف كان يقف عند آيات الله وقفة الخاشع فى المحراب ، وكيف كان يسبح فى بحور التفكير فى خلوة ينصرف فيهـا الى معالجة تفهـم الآيات ليخرج للناس ما ينفعهم فى أمر دينهم ودنيـاهم . وكانت العلة تنهك قواه ، والداء يأخذ عليه مسالك التنفس . ولكنه لم يكن يبالى بالالم ولا بتباريحه ، ويمضى فى تحضير دروسه صافى النفس موصولا بأسباب الله . ثم ينطلق الى المسجد فى سمت العابد ، ويتلو آى الله وتفسيرها متمكنا

بأمر ربه ، لا تعروه لعثمة ولا تردد ، من غير أن يستعين بما يتلوه مكتوبا لأنه كان يلقيه من كل قلبه وجوارحه

وكان الفقيد ، رحمه الله ، يشعر فى أواخر أيامه وهو يلقى دروسه بدنو الأجل ، ولكنه لم يتهيب أن يمضى فى طريقه. وكان اذا اشتدت عليه العلة فى المسجد صمت لحظة ثم توجه الى الله فى سره وسأله أن يعينه على اتمام الدرس . وكم من مرة عاودته العلة ، وكم من مرة توجه فيها الى الله أن ينجيه منها ، وقد ختم حياته وفى يده القلم يفسر كتاب الله ، وصعدت أنفاسه الى بارئها بعد أن أنهى تفسير جزء « تبارك » بدقائق معدودات

◻

وأعود الى الموضوع فأقول: ان تلك الدروس كانت غريبة فى ملابستها ، كما كانت غريبة فى نهجها وأسلوبها ، فما حفظ تاريخ العصور القريبة أن جلس ملك من الملوك فى احتفال عام ، وفى مسجد من المساجد ، الى شيخ من شيوخ الدين يستمع الى تفسير كتاب الله ، وما استمع الناس الى عالم يفسر كتاب الله على النحو الذى كان يفسر به الشيخ المراغى ، فقد كان تفسيره مشرق الديباجة ، رقيق الأسلوب ، واضح الدلالة ، قريب الغرض .. واستطاع أن يجمع فيه بين معانى كتاب الله وحقائق الحياة ، ويربط بينها وبين القضايا العلمية ، مبرزا قوة القرآن وأسرار عظمته فى هذا الميدان، كما استطاع أن يجلى ما فيه من أسرار الأحكام وألوان العبر والعظات التى هى أهم مقاصد القرآن

لقد حشيت أكثر كتب تفاسير القرآن بكثير من قضايا العلوم ومصطلحاتها الفنية وبالقصص المصنوع ، فزاحمت معانى القرآن وأبعدتها من الأذهان وخرجت عن مقصده فى

العظة والاعتبار ، وكان لتفسير القرآن عند أكثر الناس ــ حتى بعض الخواص ــ تلك الصورة المعقدة من المصطلحات والقواعد الغريبة . فلما القى الشيخ دروسه استنارت أفكار السامعين وأدركوا أن تفسير القرآن شيء آخر أوضح وأقرب منالا مما فى كتب التفاسير ، ذلك أن الشيخ قد حرص على أن يكون التفسير بيانا لكتاب الله وكشفا لأسراره ، بالعبارة التى تليق بجماله وجلاله ، وبالقدر الذى يتضح به المعنى من غير حشو أو اغراب

وبهذا كانت دروس الشيخ فى التفسير جديدة وغريبة ، يجد فيها العالم طلبته ، ويقضى منها المتعلم لبانته. وصادفت قبولا وتقديرا لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى عامة .. وكان المسلمون يرصدون أوقاتها ليستمعوا اليها ويستمتعوا بما فى القرآن من جلال وجمال

وفى الحق ان هذه الدروس لم تكن دروسا فى التفسير فحسب ، بل كانت دروسا فى العقائد والأحكام والاخلاق والآداب واللغة والاجتماع، تتنوع موضوعاتها حسب تنوع الآيات ، وكانت أحيانا دروسا فى السياسة تمليها الأحوال والمناسبات . والسياسة العادلة النزيهة عملا وعلما عنصر من عناصر الدين الاسلامى ، يأثم المسلم ان فرط فيه

ولا أغلو اذا قلت ان تلك الدروس فى قوتها ووضوحها وتهذيبها وترتيبها، كانت صورة صحيحة لعقل الشيخ وفكره وصفاء نفسه وقوة ايمانه . ولا زالت تلك الدروس بين يدى علماء الأزهر وغيرهم مثار الاعجاب والتقدير ، ومثالا ناطقا بمكانة الشيخ فى فهم القرآن والغوص فى أسراره والقدرة على فهمه وتفهيمه .. وهى بينهم نماذج راقية لما ينبغى أن يكون عليه تفسير القرآن

ويقول الاستاذ الشيخ شلتوت عضو جماعة كبار العلماء فى بيان تلك الدروس وآثارها يومئذ : « ولقد كانت عاملا

قويا فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر الى الجانب الدينى، ولفت أنظارهم الى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم وأدب جم كريم وارشاد قيم مفيد ، فحببت اليهم الدين وزينته فى قلوبهم ، وهرعوا اليه يتعرفون حكمه وأحكامه ويلتمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية أساسها الدين والخلق الكريم . وكانت هذه السنة أيضا مثار هدى وارشاد يلقى أشعته الوضاءة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن فيضىء لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله واستخلاص آدابه وأحكامه »

☐

وكلما أهل رمضان طالعتنا ذكرى الشيخ وذكرى دروسه ، فهاجت نفوسنا وعاودها الشوق والحنين وافتقدنا مكانه ثم اثنينا نلتمس العزاء ممن له البقاء ونسأله للشيخ حسن الجزاء

وقد كانت هذه الدروس سنة حسنة استنها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق حفظه الله ، فأيقظ بها فى نفوس الشباب العاطفة الدينية ، ولفت أنظارهم الى هدى القرآن . فنسأله مخلصين ضارعين أن يجزيه بما وعد به أصحاب السنن النافعة ، وأن يعزه بالدين ويعز الدين به ، وأن يقر عينه بولى عهده ، وأن يجعل مصر بفضله قبلة الاسلام والمسلمين

وانه لتقدير كريم ، ووفاء جميل ، وفكرة موفقة ، أن تصدر «دار الهلال» فى يوم ذكرى الشيخ فى رمضان ، بعض دروسه الدينية لينتفع المسلمون فى شهر القرآن ببعض تفسير القرآن . . وان ذلك لعمل يرضى روح الشيخ ، ويرضى محبيه وعامة المسلمين ، وهو لذلك جدير بالشكر والتقدير

احمد مرتضى المراغى

آيات
من سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

* « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » :

البركة : ثبوت الخير الالهى فى الشىء ، ومنه « وجعلنى مباركا أينما كنت » أى موضعا للخيرات الالهية . ويقال تبارك أيضا بمعنى تعالى . وقد صعد أعرابى على رابية وأطل على أصحابه وقال : تباركت عليكم ، اى تعاليت عليكم

والفرقان : هو الفرق ، لكنه أبلغ منه ، ويستعمل أكثر فى الفرق بين الحق والباطل

والنذير : المنذر . والانذار : اخبار فيه تخويف ، ضد التبشير فانه اخبار فيه سرور

والملك : التصرف التام والضبط مع القهر والاستيلاء

والتقدير : جعل الاشياء على مقدار مخصوص وصفة خاصة حسبما اقتضته الحكمة الإلهية . وفعل الله سبحانه على ضربين : ضرب أوجده دفعة واحدة بجميع أجزائه ، وضرب جعل أصوله موجودة لكن أجزاءه كلها أو بعضها غير موجودة فعلا ، بل هي موجودة بالقوة ، وقدره على وجه لا يتأتى فيه غيره ، كما قدر فى نواة الزيتونة أن تنبت زيتونة لا غير ، ونواة التمر أن تنبت نخلة لا غير ، وهكذا مما قدر له سننا مطردة لا تتحول

ومعنى الآيات : تعالى الله سبحانه وارتفع عن جميع الموجودات ، واتصف بصفات الكمال كلها ، وتنزه عن سمات النقص وعن مشابهة الخلق ، وتكاثر خيره وبره ، وجوده وفيضه.ومن أكرم الخير وأعمه فائدة انزال القرآن ، فهو كمال للنفس الانسانية التى هى أشرف أجزاء الانسان، وهو مصباح الهداية الى المعارف الحقة ، وطريق السعادة لمن عمل به ، فيه من العقائد الصحيحة ما يضع الانسان موضعه اللائق به فى الوجود ، موضع العزة وعدم الخضوع الا لمستحق الخضوع،موضع الخلافة عن الله سبحانه فى الارض، وفيه من أصول الأخلاق الفاضلة ما هو لائق بالانسان ، وبوساطته بين الملأ الأعلى وهذا العالم،وفيه معارف صحيحة دقيقة يكشف الناس عنها على تعاقب الايام ، وفيه من النظم ما قامت الأدلة والتجارب على أنها خير ما يقى الانسان من التفكك والانحطاط ، ويحفظ روابط المحبة بين أفراد هذا النوع وجماعاته . وليس أدل على مكانة القرآن عند الله ومكانته فى نفسه من الاقتصار على ذكر انزاله فى مقام المنة ومقام النعمة بعد وصف الله سبحانه نفسه بالتعالى وكثرة البر والخير . ونحو هذا فاتحة سورة الكهف « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ،

لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا » . والفرق بينهما انه اقتصر فى فاتحة هذه السورة على ذكر الانذار لحكمة سأذكرها بعد

وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية ، وهى أشرف صفات المخلوقين ، وبين أنه نذير العالمين ، فهو رسول الله الى الخلق أجمعين منذ بعث الى أن تبدل الارض غير الارض والسموات . وسمى القرآن فرقانا لأنه فرق بين الحق والباطل ، وفرق بين المحقين والمبطلين .

وفى القرآن نذر وبشارات ، لكن الله لم يذكر فى هذه الآيات البشارات ، لانه سيعرض للكافرين والمشركين الذين نسبوا الى ذاته ما لا يجوز فى حق ذاته ، ونسبوا الى القرآن ما هو غير لائق بالقرآن ، ونسبوا الى محمد ما هو برىء منه ، واللائق بهؤلاء هو الانذار . وصف الله نفسه بالتعالى وكثرة الخير ، وبأن له الغلبة والقهر والاستيلاء على السموات والارض وما فيهن ، وبأنه لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك ، وبأنه خالق كل شىء وموجد كل شىء بقدر ، على نحو تترتب عليه آثاره الخاصة به ، طبقا للسنن الالهية المرسومة

يكاد الاعتراف بالخالق يكون فطريا فى غير حاجة الى استدلال ، لكن القرآن لم يتركه للفطرة ، فحرك فى نفوس الناس طلب النظر والاعتبار ، وأشار الى ما فى السموات من نظام بديع محكم ، والى اختلاف الليل والنهار ، وحركات السيارات والارض ، وغير ذلك من دقائق الكون وأسراره ، مما لا يدع عند العقل مجالا للقول بأنه نشأ عن المصادفة والاتفاق ، أو أنه نشأ عن موجد غير شامل القدرة والعلم ، وغير واسع الحكمة ، بل يضطره بعد البحث الى الجزم بأن قوة مدبرة حكيمة محيطة بالاشياء احاطة تامة هى التى

نظمت هذا الكون ، وخلقت هذه السنن ، وأن اتباع اشارات القرآن وأوامره تجعل من الخير كله للمسلم أن يسبح بعقله فى هذا الوجود ، وأن يتطلب المعرفة لادراك كنه السموات والارض والاحاطة بهذا النظام الباهر • وهذه المعارف هى التى تزيد ايمان المؤمن ، وتطمئن قلبه اطمئنانا يقارب اطمئنان ابراهيم عليه السلام حيث قال : « رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » • وقد قال بعض العلماء من قبل : ان معرفة تشريح الأفلاك وتشريح الانسان هى الدلائل القاطعة على سعة علم الله وحكمته • وقد كان هذا فى وقت كان تشريح الأفلاك فيه وتشريح الانسان طفلا فى مهده، فكيف يكون الحال الآن ؟

ولقد جنى بعض العلماء على المسلمين فى الماضى جناية بعيدة الأثر فى حياتهم ، جناية صرف الناس عن الكون وأسراره ، فهذا لا يتفق وأغراض القرآن ، فضلا عن أن هذه الدراسات رفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ، ومكن لها فى الارض فاستولت على أمم تفوقها عددا وثروة ، واستوت على عروش العز والسلطان ، واهمال هذه الدراسات سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعز ، بتاريخها ودينها وثروتها • وانى أنصح قومى وأهل ملتى بتوجيه الجهود الى الدراسات العلمية ، واستثمار ما أودعه الخالق جل شأنه فى معادن الارض ونباتها وحيوانها ، وما أودعه فى الهواء والضوء وغير ذلك من الموجودات ، فذلك خير مما نحن فيه دينا ودنيا

مالك السموات والارض واجب الوجود لذاته ، لا يقبل الانفصال والاتصال ، وليس له أجزاء ، ولا يمكن أن تكون

حقيقته متعددة ، وهو الحقيق بالعبادة والتوجه اليه ، وكل ما عداه محتاج اليـه مفتقر فى كل لحظة الى اشراق وجوده وفيض جوده ، فلا يمكن أن يتخذ ولدا ، ولا يمكن أن يكون له شريك فى الخلق والايجاد والتدبير ، ولا يجوز فى نظر العقل أن يتوجه أحد الى شيء من مخلوقاته ، فهى كلهاعابدة غير معبودة ، وكلها مسبحة منزهة له،ولا يجوز أن يعبدشيء منها وأن ينزه ويسبح ، وقد علمنا الله سـبحانه أيضا أن نتوجهاليه ونقول : «اياك نعبد واياك نستعين»٠وأفهمنا أنه أقرب الينا من حبل الوريد ، وأنه معنا أينما كنا ، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسـة الا هو سادسـهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ، وقال : « ادعونى أستجب لكم » ٠ فهذه العقيـدة البسيطة الخالصة الحقة : عقيدة التوحيد وعدم الاعتـداد بأحد سوى الله فى طلب كشف الضر ودفع السـوء ، وفى طلب الهـداية فى ظلمات البر والبحر ، وفى طلب انزال الغيث ، هى مقتضى العقل ومقتضى الشرع ، ومع ذلك فهى ترفع قدر المسلم عند نفسه وعند غيره ، وهى موضع العز وموطن الكرامة ، انما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين

نعود بعدذلك الى قوله سبحانه : « **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** » ، فنقول : كل ما كان مرسـوما فى العلم الالهى الأزلى هو القدر ، وايجاد الله سبحانه للاشياء وابرازها الى عالم الظهور مطابقة لما رسم فى العلم هو التقدير٠فالتقدير هو التسوية وخلق الاشياء من مواد خاصة على صور خاصة بحيث يترتب عليها آثارها ولا يمكن أن يترتب عليها غيرها من الآثار ٠ وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » : أحدث كل شيء فقدره وسواه فىذلك الاحداث تقديرا بديعا موافقا للحكمة وللنظام السـابق فى العلم

ولكل جزء من أجزاء العالم غاية ، وكل جزء يؤدى وظيفة خاصة به ، ومجموع هذه الاجزاء كلها ، وهى مرتبطة بعضها ببعض ، يؤدى الغاية العامة الكلية لخلق العالم. نظير ذلك : الساعة ، والغرض منها تحديد الوقت وضبطه ، لها أجزاء ولكل جزء عمل ، وكل جزء يصنع من المادة المناسبة له التى يمكن بواسطتها أداء ذلك العمل ، وجميع الاجزاء مرتبط بعضها ببعض على نحو خاص يؤدى الى الغاية العامة وهى تحديد الوقت

* « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا » :

عجيب حال هذا الانسان ! يبلغ من السمو والمعرفة ما يجعله متصلا بالملأ الأعلى وهو على الارض لم يفارقها ، ويبلغ به السمو ألا يرى لأحد من الخلق حقا فى التوجه إليه ، فلا يطلب الا من الخالق ، ولا يعبد الا الخالق ، ولا يعتز بعز أحد الا بعزة الخالق ، ويبلغ من الدناءة والحطة الى أن يعبد حجرا أو شجرا أو انسانا مثله ، أو حيوانا من أجهل الحيوانات وأقلها معرفة ، ويعبد ما يصنعه بيده ، وما يكسره الصبى اذا عبث به ، فهو يعبد مخلوقا غير خالق ، وموجودا لا يملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا بعثا بعد الموت . ومن من المعبودات سواء أكانوا من الجن أم من الانس ينزل الغيث ، وينبت الشجر ، ويدفع الصواعق، ويمنع الأرض أن تميد ؟ ومن يدفع الأمراض ، ويبرىء الأسقام ، ويهب الشفاء ؟ لا أحد سوى الله يملك هذا مجتمعا

أو مفرقا • مع وضوح هذا عند العقل فقد اتخذ الناس من قبل ، واتخذوا اليوم ، معبودات مخلوقة لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا،ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا، والواجب فى نظر العقل عند أهل الفطر السليمة ، وقد أيد القرآن ذلك بالآيات ، أن يكون المعبود خالقا غير مخلوق ، وأن يملك دفع الضر وجلب النفع ، وأن يملك الاحياء والاماتة ، ويملك النشور والبعث بعد الموت

وحق على المسلم أن يتدبر هذا وأن يراعيه اذا كان ممن يؤمن بالقرآن ، ويحذر ما فيه من التقريع والتوبيخ

وينبغي أن نشير الى شيء يجب التنبه له : وهو أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا هذه الآلهة على أنها شريكة لله فى الخلق، أو شريكة له فى صفاته ، من الوجوب والقدم وما أشبه ذلك، كلا ! فان الله سبحانه يقول : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم• الذى جعل لكم الارض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » ، « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته• قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »• فهو يلومهم ويقرعهم على أنهم دعوا غيره وتوجهوا الى غيره ، ويقول لهم : هؤلاء الذين تتوجهون اليهم وتدعونهم ، لا يملكون كشف الضر ، ولا يملكون انزال الرحمة ولا دفعها ، فليس هناك أية فائدة من التوجه اليهم ، لأنه هو الذى يملك دفع الضر ويملك الرحمة• وفى آية أخرى نعى عليهم اتخاذهم شفعاء ، فقال : «أم اتخذوا من دون الله شفعاء ! قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ! قل لله الشفاعة جميعا ، له ملك السموات والارض ، ثم اليه ترجعون » • ثم وجه اليهم تأنيبا أشد من ذلك، فقال : « واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين

لا يؤمنـون بالآخـرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » . فأثبت أن الذى يدعو مع الله شيئا آخر ويذكر معه شيئا آخر،ولا يفرده بالتوجه ولا يفرده بالذكر، شخص لا يؤمن بالآخرة

* « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » :

الافك : الكذب والبهتان . **وافتراه** : اختلقه ونسبه الى غيره . **والظلم** : وضع الشيء فى غير موضعه . **والزور** : الكذب المنمق . **وأساطير الأولين** : الأحاديث والأخبار التى سطرها المتقدمون . **واكتتبها** : كتبها ، أى طلب كتابتها . **والبكرة** : الغدوة . **والأصيل** : العشى

بين الله سبحانه مزاعم المشركين فى الشريك من قبل ، ثم بين فى هذه الآيات مزاعمهم فى القرآن ، فقد زعموا أن محمدا اختلقه ونسبه الى الله سبحانه ، وأعانه على ذلك أقوام كانوا يعرفون أخبار الأمم الماضية ويكتبونها له بطلبه ثم يملونها عليه لأنه لم يكن يقرأ ويكتب ، ثم يصوغها هو فى هذا الأسلوب العربى البليغ ، وكانوا يفعلون ذلك دائما فى الغدوة قبل انتشار الناس ، وفى العشى بعد سكونهم الى مأواهم

أولئك الذين زعموا هذا فى القرآن ، ظلموه ، وظلموا النبى صلى الله عليه وسلم • وقد علمنا من قبل أن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، ومع هذا فهم مزورون كاذبون ، نمقوا هذا الكذب على هذه الطريقةالتى قد يقبلها بعض الجهلاء ، وقد بين الله بطلان هذه المزاعم بقوله : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ، انه كان غفورا رحيما »

وقد أبنت من قبل أن الله بعد أن وصف نفسه بالتعالى وكثرة الخير ، لم يذكر من نعمه الا القرآن ، ثم بعد ذلك وصف نفسه بالتفرد فى الخلق والعزة والقهر ، وكل هذا لاشعار النفوس بعظم منزلة القرآن ، وللتمهيد الى هذا الرد البديع المحكم

انه يقول لهم : اذا تدبرتم وأنصفتم ، ولم يحل العناد والهوى بينكم وبين ادراك الدليل ، علمتم ما في القرآن من مزايا وصفات ومعان لا يقدر عليها أحد الا الله الذى يعلم السر في السموات والارض،ولا يقدر عليها الخلق مجتمعين: « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » • ولا ريب فى أن هذا موضع يمكن أن يكتفى فيه بهذا القدر ، وأن يطول فتوضع فيه الكتب ، وما وضع العلماء علوم البلاغة ولا أطالوا فيها وسهرواوأجهدوا أنفسهم الا مناصرة لفكرة القول بأن الاعجاز كان بالاسلوب ، ولا شبهة فى أن الاسلوب قهر العرب فصحاءهم وبلغاءهم • ولا ريب فى أن سر الاعجاز فى النظم لا يدرك الا بالذوق ، والعالم بأسرار العربية يدرك كما يدرك العربى ذلك الاعجاز • أما القواعد الموضوعة فلا توصل الى ادراك الاعجاز ما لم يصاحب علمها ذلك الذوق الذى أشرت اليه

ولا شبهة فى أن خصائص الاسلوب في القرآن فى حاجة الى علم الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، ولا شك فى أن للقرآن تأثيرا فى النفوس لم يبلغه من قبل شعر ولا نثر، ولا يدري الانسان من أين جاء ، ويقف أمامه موقف العاجز المذعن ، منتهيا الى أنه من عند الذى يعلم السر فى السموات والارض ، هذا الى ما فيه من نظم للجماعة الانسانية روعيت فيها مصالحها مراعاة لا يقدر عليهـا الا من يعلم السر فى السموات والارض . وفيه اشارات الى معارف دقيقة فى الكون وأسراره كشف العلماء عن بعضها ، ولم يكن من الميسور لأحد زمن نزول القرآن ادراكها ، وقد دلت هذه المعارف على صدق قوله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . وقد دلت التجارب على أن المسلمين سعدوا أيام أن عملوا بالقرآن واهتدوا بهديه ، وشقوا أيام أن أعرضوا عنه وتركوه . وليس حفظه وتلاوته وتجويده هو العمل به ، وانما العمل به هو فهمه ، وادراك الاغراض العامة منه ، وملاحظة أن تكون الاعمال جميعها فى هذه الدائرة : دائرة الحق والعدل ، والعلم والرشد

وقوله سبحانه : « **انه كان غفورا رحيما** » : معناه أن صفة الرحمة وصفة المغفرة هما السبب فى انزال القرآن . أما أن صفة الرحمة سبب ، فالأمر فيه ظاهر ، لان الرحمة تقتضى الاحسان ، وأكمل الاحسان الهداية ، والمعرفة الحقة، والنظم الصالحة . وأما أن المغفرة سبب، فان القرآن من شأنه أن يرد الضالين الى الهدى، ويردهم الى الله سبحانه فيقلعوا عن المعاصى ، وذلك تحقيق لآثار صفة المغفرة . وقال المفسرون فى ذلك : ان الافتراء على الله سبحانه باتخاذ الشريك والولد ، والافتراء على القرآن بأنه مختلق ، كل ذلك يستحق تعجيل العقوبة ، لكن الله سبحانه صرف العقاب

الى أجله ، وهو وان كان لا يهمل فانه يمهل ، وهذا الامهال سببه أنه غفور رحيم

* « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً . تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً » :

ومعنى الآيات : أى شيء أصاب هـــذا الذى يدعى أنه رسول حتى أقدم على هذه الدعوى الجريئة التي لا يصح أن يدعيها مثله ؟ فهو واحد منا يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الاسواق طلبا للرزق كما نمشى ، فليس له فضل علينا ولا مزية يستأهل بها هذه الرسالة ، ولو أنه كان صـادقا فى دعواه لأيده الله سبحانه بملك ينزل اليـه من السماء يشاركه فى الانذار ويحمل معه عبء الدعوة والتبليغ ، ولو أنه كان صادقا فى دعواه لأغناه الله عن طلب الرزق، وأنزل اليه كنزا من السماء أو ملكه بستانا يأكل منه ، وما هـذه الدعوى على هذه الحالة الا بسبب مس الشيطان ومخالطته له فى عقله ، فهو رجل مسحور

وشبيه بهذا ما جاء في سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا »

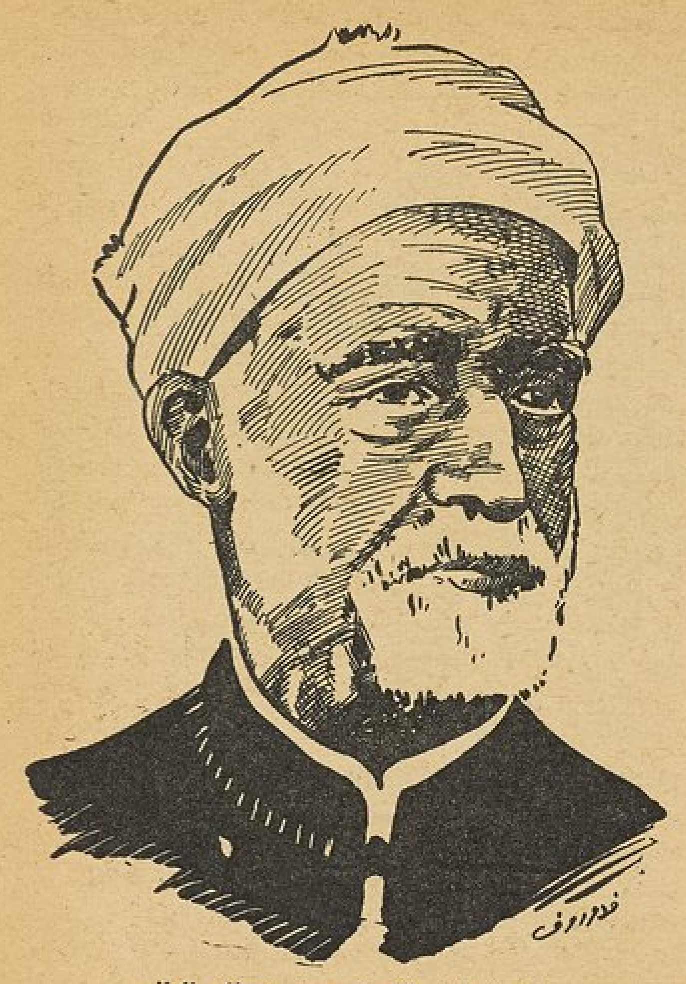
وقد بين الله سبحانه سبب هذه المزاعم والأباطيل جميعها على وجه الاجمال بقوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » : يعني أن ضلالهم وامعانهم في الضلال بحيث لا يقدرون على التخلص منه ولا يستطيعون معه طريقا الى الهدى هو سبب هذه الأباطيل جميعها ، فهم ضلوا الطريق المستقيم في فهم الأمور ، وفي الاستدلال ، فلم يعرفوا ما يصح أن يطلب ويقترح ، وما لا يصح أن يطلب ويقترح ، ولم يعرفوا ما ينبغي أن يكون عليه الأنبياء والهداة ، وما لا ينبغي أن يكونوا عليه ، وما يجب أن يتصف به الأنبياء ويعطوه من عند الله ، وما لا يليق بهم ولا يصح أن يمنحوه ، ولم يعرفوا حقيقة الملائكة وما هو لائق بهم . وقد سمى الله هذه الأباطيل أمثالا لغرابتها وغرابة صدورها ، والعرب تطلق الأمثال على الأحوال العجيبة والقصص الغريبة النادرة ، كما تطلقه على القول السائر فيه غرابة

ونعود الى تفصيل الرد على هؤلاء المشركين :

أما حديث الطعام والمشي في الاسواق ، فقد رد الله سبحانه عليهم بقوله في هذه السورة : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق» فبين لهم أن محمدا في ذلك ليس بدعا من الرسل ، وأن

اخوانه كلهم من الأنبياء ، ومنهم من كان المشركون يعترفون بنبوته ، كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق. وأما حديث الكنز يلقى من السماء ، والبستان يأكل منه ، فقد رد الله سبحانه عليهم بقوله : « تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » . ومعناه أن هذه النعم الدنيوية وغيرها من النعم جميعها بيد الله سبحانه ، فهو القادر على كل شىء ، ان شاء أعطاها وان شاء منعها ، وهو فى حالى الاعطاء والمنع حكيم لا يفعل الا ما فيه المصلحة ، والنبوة والدعوة الى الله سبحانه فى حاجة الى اقامة الأدلة وثبوت المعجزات ، وقد تم ذلك كله على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى حاجة الى صفات الحزم والعزم وغير ذلك مما هو واجب للدعاة والهداة ، وكل ذلك أعطاه الله نبيه ، والنبى قدوة للخلق ، وينبغى أن يكون موضع سلوى البائسين والمعوزين، وليس أكثر الناس الذين يدعون الى الدين ، وليس أكثر الذين اهتدوا بهديه وتابعوه هم الأغنياء أصحاب الجنات والكنوز ، بل أكثرهم هم الفقراء الذين لم يعطوا من الرزق الا القليل ، فاذا كان النبى فقيرا تعزى به الفقراء ، واذا لم يكن له كنز ولا جنة يأكل منها تعزى به من ليس لهم كنوز ولا جنات وقنعوا بالرزق ، وقالوا : هذا حبيب الله ومصطفاه لرسالته فقير مثلنا ، ولو كانت الدنيا محببة الى الله لوفر له الخير فيها ، وقال الأغنياء أيضا : لو كان المال محببا وقيمته عند الله عظيمة لما ضن الله به على أكرم عباده وأحب الخلق اليه . هذا كله يعزى الفقراء ويدعو الأغنياء الى البذل والى عون المحتاجين

لو شاء الله لأعطاه كنوزا ، وقصورا ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، لكنه لم يشأ لهذه الحكم السابقة ، وقد أعطاه فى الدنيا ما هو أحسن : أعطاه العلم والمعرفة ، وعزة



الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى

النفس ، والتقوى ، وأعطاه الفضائل النفسية جميعها ، وادخر له في الآخرة القصور والجنات ، وما هو أعز وأعلى وأغلى من الجنات ، وهو رضوان الله سبحانه ، ورضوان من الله أكبر

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
اذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

بقى الحديث عن نزول الملك وعن السحر : أما نزول الملك فقد رد الله عليهم في سورة الأنعام بقوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » ، ومعناه لو أننا أنزلنا على الناس ملكا فانهم لا يقدرون على رؤيته ومشاهدته بالحالة التى هو عليها ، ولذلك كان من الواجب اذا أنزلنا ملكا أن نجعله على صورة رجل ، ولو أننا جعلناه على صورة رجل لضاعت فائدة انزاله ، لأنهم اذا راوه رجلا قالوا هذا بشر ، ولا طريق لهم الى علم أنه ملك

الجهل بطبائع الاشياء يسهل على الناس اقتراح غير الممكن منها ، والجهل بحقيقة الملائكة يسهل على الناس اقتراح انزال الملك ، والجهل بما ينبغى أن يكون عليه الأنبياء يسهل على الناس اقتراح الكنوز والجنات ، والجهل بما عليه الأنبياء من السمو الروحى الذى يمكنهم من تلقى الوحي يجعل الناس يستبعدون تلقى الوحى ونزول الوحى على الأنبياء

وكيف يكون محمد مسحورا وقد عرف قبل النبوة بالأمانة والفطنة ورجحان العقل وحسن التدبير ، وقد ساس أمته بعد الرسالة ، ودبر أمور الحروب والصلح ، ودبر علاقات أمته بغيرها من الأمم ، وروابط أمته بعضها ببعض ، أحسن سياسة وأحسن تدبير ، ودبر تبليغ الرسالة على نظام بديع وخطط محكمة ، حتى ظفر بالشرك ، وحقق الله له النصر

صفات عباد الرحمن

قال الله تعالى :

* « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ

يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً .
وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ
إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا .
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » :

جرى الحديث فى الآيات السابقة حول المشركين والكافرين ، ومزاعمهم وأحوالهم ، وما أعده الله لهم من العذاب : اتخذوا من دون الله آلهة عبدوها لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . قالوا عن القرآن : افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قالوا ذلك مع اشتمال القرآن على أسرار الكون وعلوم الغيب التى لا يعلمها الا الله الذى يعلم السر فى السموات والارض . قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : ما نرى الا رجلا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ،

ولم يكن هناك رسول قبله الا كان ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق . قالوا : لم لا يكون له كنز او جنة ياكل منها ؟ كان الرسول يجب أن يكون من اغنياء الدنيا وله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . قالوا : انه رجل مسحور ، وهو الذى دبر أمر تبليغ الرسالة على أحسن وجه ، وهو الذى ساس أمته فى دينها ودنياها وحروبها وفتوحها . قالوا ذلك وغيره مما أوحى به الحمق والجهل ، وكذبوا بالساعة ، واستكبروا وعتوا عتوا كبيرا ، حتى اذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا . قالوا ذلك مع وضوح الدلالات على وجود الله سبحانه ، وعلى انه المتصف بجميع الصفات ، ومنها صفة الرحمن ، ومع قيام الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع ما جاء به ، ومنها اخباره بالساعة وانها حق لا ريب فيها

وفى هذه الآيات استأنف الله سبحانه الحديث عن خلص المؤمنين من عباده ، فذكر أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، ووصفهم بصفات كثيرة استحقوا بها وصف العبودية والاضافة الى اسمه الرحمن ، فدل ذلك على أن صفة العبودية أشرف صفات المخلوقين

* « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » :

قرىء **عباد** بالكسر جمع عبد ، وعباد بالضم جمع عابد ، وهو على الأول من العبودية ، وعلى الثانى من العبادة . والعبودية اظهار التذلل ، والعبادة غاية التذلل . والعبد قسمان : مخلص لله تعالى ، ومنه « واذكر عبدنا أيوب » ،

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » ، ومعتكف على خدمة الدنيا ، واياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! »

والهون : الرفق واللين . ومنه الحديث « أحبب حبيبك هونا ما »

والجهل : السفه وسوء الادب

من صفات عباد الرحمن ترك الايذاء ، واحتمال الأذى ، حيث لا يترتب على ذلك تهاون بالدين ، او بالعرض ، او مذلة لنفس المؤمن

اشار الله سبحانه الى الاول بقوله : « يمشون على الارض هونا » : اى مشيا هينا برفق لا تكلف فيه ولا تصنع ، فهو لا يتكلف المشى الهين ، ولا يتكلف ضرب الارض بقدمه اشرا وبطرا ، ولا التبختر خيلاء ، بل يرسل نفسه على طبيعتها ، لا يقصد الكبر والعلو ، ولا يقصد بالرفق فى المشى الرياء ، ثم يعيث فى الارض فسادا . صفته فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « وما انا من المتكلفين » . المؤمن الذى هذا شأنه مؤمن يسلم الناس منه ، ومن أذاه ، ولا يريد فى الارض علوا ولا فسادا

واشار سبحانه الى الثانى بقوله : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » : اى سدادا من القول بلفظ (سلاما) وبغيره مما يدل على المتاركة وعدم المقابلة بالمثل ، فهو قول لا خير فيه ولا شر ، او قالوا هذا اللفظ نفسه على قصد المتاركة لا على قصد التحية ، كما قال ابراهيم عليه السلام لأبيه : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى » . فالمؤمن حليم وان جهل عليه . وترك المقابلة للسفه مستحسن أدبا وشرعا ومروءة ، وهو أسلم للعرض ، على أن لا يترتب عليه مذلة وثلم للعرض والدين ، أما اذا ترتب هذا فقد ندب المؤمن

للدفاع . فالاعراض الممدوح انما هو فى مقابلة سوء أدب الجاهل الذى ينتهى أمره بالاعراض والصفح

ومن لطيف ما يروى أن ابراهيم بن المهدى ، وكان منحرفا على على كرم الله وجهه ، رأى عليا فى النوم تقدم الى قنطرة يعبرها ، فقال له : انما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فقال على لابراهيم : سلاما سلاما !. وقص ابراهيم الرؤيا على المأمون ، وقال : ما رأيت لعلى بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه . فقال له المأمون : أجابك ابلغ اجابة ، اقرأ قوله سبحانه : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . فخزى ابراهيم واستحيى

ومن كلام الحسن رضى الله عنه ، وفيه نزعة صوفية : « المؤمنون قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وانهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم فى انفسهم ما طلبوا به الجنة ! ابكاهم الخوف من النار ، وانه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله عليه نعمة الا فى مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه »

المؤمنون كما وصفهم الحسن : رحماء بينهم ، ولكن اذا دعا داعى الحق ، وتعرض الدين او تعرضت الأوطان للهوان والذل ، كانوا أشداء ، وكانوا الليوث تحمى العرين ، يظهر بأسهم عند الحاجة ، وليس بينهم بأس ، هكذا يجب أن يكونوا ، فأين هم ؟!

* « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » :

البيتوتة : أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ، وهى خلاف الظلول ، ولذلك صح أن تقول : بات فلان قلقا . **وقياما** : جمع قائم كصيام جمع صائم . **وغراما** : **معنـــاه** : موجعا ملحا لازما

من صفات عباد الرحمن احيـــاء الليـــل كله أو بعضه بالصلاة ، ومن أحياه هكذا قيل : بات ساجدا قائما . وقال بعض العلماء : من صلى الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء صح أن يوصف بهذا . ولا يلزم فى عبودية عباد الرحمن احياء الليل كله أو أكثره بالعبادة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم ينام ويقوم ، الا ما فرض عليه بقوله تعالى : « قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليـــلا ، أو زد عليه » . وكان يصوم ويفطر ، وقال : « هذه سنتى ، فمن اعرض عن سنتى فليس منى » . وقد جعل الله الليـــل لباسا ، والنهار معاشا ، وكلف عباده السعى للحصول على الرزق ، والانفاق على من يعوله المؤمن واجب ، والصدقات مندوب اليها ، فكيف يمكن السعى مع قيام الليـــل كله ؟ وكيف يكون قيامه لازما فى وصف عباد الرحمن ؟

ومن صفات عباد الرحمن انهم مع اجتهادهم فى العبادة واحياء الليل ، وجلون حذرون خوف العقاب ، يبتهلون الى الله سبحانه دائما فى طلب صرفه عنهـم وبعـدهم عنه ، يذكرون أن عذاب جهنم موجع مهلك وملح دائم ، وأنها لهذا بئست المكان الذى ينزل فيه ، وبئست الموضع للاقامة !

والمستقر : ملاحظ فيه معنى القرار . **والمقام** : ملاحظ

فيه معني الاقامة ، وهما فى المعنى واحد لا فرق بينهما ، فهو من قبيل قول الشاعر :

. . . .   والفى قولهــا كذبا ومنا

والمين هو الكذب . او يقال : من شأن العذاب فى الآخرة انه مضرة لا نفع فيها ، واشير اليه بقوله : « ان عذابها كان غراما » ، ومن شأنه اللزوم ، واشير اليــه بقوله : « انها ساءت مستقرا ومقاما » . واللزوم كمــا يكون فى الـكفار يلازمهم العذاب دائما ، يكون فى العصاة يلازمهم العذاب مدة بقائهم فى النار . ولا وجه لقولهم : ان اللزوم يختص بالكفار

* « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » :

اذا عرف **القوام** : وهوالوسط والحد الفاصل بين الاسراف والتقتير ، عرف الاسراف والتقتير ، فان الاسراف تجاوز الحد ، والتقتير التقصير عن الحد . وقد سمى حد الاعتدال قواما لاستقامة الطرفين حوله واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة : السواء من الاستواء . وليس من اليســير تحديد القوام فى كل الأمور ، وقد يسهل فى بعضــها على وجه ما . مثلا : يمكن معرفة الجوع والشبع ، والظمأ والرى ، فيكون الأكل عند الجوع والكف عنه عند الشبع ، والشرب عند العطش والكف عنه عند الرى ، قواما . فمن فعل ذلك عد داخلا فى دائرة القوام من حيث الكمية المتناولة . لكن ما هو حد القوام فى نوع الطعــام ، ونوع اللبــاس ، ونوع الصدقات ، وفى غير ذلك مما هو موضع لانفاق المال ؟

بالرجوع الى قواعد الدين العامة ، وما استرشد به العلماء فى النفقة على الأقارب ، يرى أن ذلك متروك الى العرف ، والى تحديد الذوق العام ، والعرف العام عند طبقات المعتدلين ، فعمل المعتدلين فى كل طبقة من الطبقات هو القياس الذى يسمى القوام . وطبقات الناس مختلفة فى اليسار والاعسار ، وفى الشرف والجاه ، وفى الحسب والنسب، والله سبحانه يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » . وما يعد اسرافا عند طبقة يعد بخلا وتقتيرا عند طبقة اخرى ، وقد قال الله سبحانه لنبيه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . والناس فى كل زمان يفرقون بين الاسراف والتقتير ، ويعرفون ذلك بالاضافة الى كل طبقة والى كل فرد ، والمراد من الناس هنا هم العقلاء الذين لا يرون المال معبودا ، ولا يرونه شيئا لا قيمة له يرمى به ذات اليمين وذات اليسار ، بل الذين يعرفون حق نعمة الله منه ، ويعرفون للمروءة حقها ، وللدين حقه ، وللنفس حقها ، ولله حقه

ولا بد من الرجوع الى هدى القرآن والى آياته ليتضح هذا البحث :

قال الله سبحانه : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »

طلب الله سبحانه التزين للمساجد حسبما يعرفه الناس فى عاداتهم وزمانهم ، كل حسبما يقدر عليه . وروى عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا قام للصلاة لبس

أجود ثيابه ، وكان يقول : ان الله جميل يحب الجمال » . وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير اسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فان الاسراف فى الطعام والشراب مضر بالبدن ، والاسراف فيهما وفى غيرهما مضيعة للمال

والنهى عن الاسراف لا يقتصر على الطعام والشراب ، بل يعم غيرهما . وفى الحديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا اسراف ، فان الله يحب ان يرى أثر نعمته على عبده » . وعن ابن عباس : « كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت اذا أخطاك اثنان : سرف ومخيلة» . والمخيلة : الخيلاء والاعجاب والكبر

وبين الله سبحانه ان الزينة فى الدنيا والطيبات من الرزق ، للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم غيرهم فيها ، ولكنها فى الآخرة خالصة لهم لا يشاركهم غيرهم فيها

وفى القرآن الكريم ايضا : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » . فقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة ، وطلب عدم تجاوز الحد الى الاسراف الضار بالجسد ، والاسراف الضار بالمال ، وطلب عدم الاسترسال فى الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما ، حتى لا تكون اللذات هى الهم الأكبر من الحياة ، فان للمؤمن فى الحياة قصدا أسمى : هو العلم ، والمعرفة ، والعبادة ، واكتناه سر الوجود ، والاحسان الى الناس ، والنفع العام للجماعة . واذا كانت اللذات مشغولا بها الى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها ، كان ذلك صارفا عن المقاصد السامية للمؤمن . وقد أنكر الله سبحانه فى الآية السابقة على من حرم زينة الله التى أخرجها

لعباده ، فان التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه احد فيه

أباح الله الطيبات وحرم الخبائث : حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم المسكر وكل ضار ، وحرم على الرجال الحرير المصمت الخالص أو ما كان الحرير غالبا فيه ، وحرم التشبه بغير المسلمين فى اللباس ، وذلك أن يلبس المؤمن ثوبا هو شارة مختصة بطائفة غير مسلمة ، ثم أباح ما عدا ذلك على شرط القصد والاعتدال ، وذلك هو الموافق للفطرة ، فقد فطرت النفوس على الاستمتاع بالدنيا والطيبات من الرزق ، وأعطى الاسلام بذلك البدن حقه ، كما أعطى الروح حقه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « انما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم »

طلب الله القصد والاعتدال . وفى الحديث الشريف « الاقتصاد نصف المعيشة ، وحسن الخلق نصف الدين » . وفى الحديث « نعما المال الصالح للمرء الصالح ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . وقال فى الوصية : « الثلث ، والثلث كثير ، انك أن تذرهم أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس »

هذا هو هدى القرآن : لا يحرم الزينة والطيبات من الرزق ، وينكر على من يحرم ذلك ، كما تفعل بعض الأمم وبعض الملل ، ولكنه يطلب القصد ، فلا يجيز المباراة فى الزينة واللباس والحلى والمبانى وغير ذلك ، تلك المباراة التى خربت بيوتا كثيرة عامرة بسبب المغالاة فى الأفراح والحفلات واقتناء أداة الزينة التى لا يقدر مقتنيها عليها ، وقد كانت هذه المباراة وتلك المغالاة سببا فى خروج الثروة الى أيدى الشياطين ، وكانت سببا فى ضعف حال المسلمين

هذا هو الهدى ، لكن بعض العلماء رووا احاديث فى الزهد، منها الموضوع ، ومنها الضعيف ، ولا شبهة فى ان بعض الخلفاء وبعض الصحابة وبعض الأئمة زهدوا وتقشفوا ، واعرضوا عن طيبات الدنيا وعن زينتها ، لكن لهذا أسبابا ، منها ضيق ذات اليد قبل أن يفتح الله عليهم أبواب الرزق ، ومنها مقاومة الفساد بعد أن فتح الله عليهم أبواب الدنيا واستولوا على ملك كسرى وملك قيصر ، ووجدوا ما لم يكونوا يعرفون من قبل ، واندفع بعضهم فى الاستمتاع دون الوقوف عند الحد ، وعند القصد ، وعند القوام

وفى الرجوع الى الهدى المحمدى تبصرة ونور ، وضياء وشفاء • عن ابن عباس : « لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل» • وقد لبس صلى الله عليه وسلم الازار والرداء ، ولبس الجبة والفروج ، وهما ثوبان يشبهان القباء والفرجية ، ولبس الخميصة المعلمة والساذجة ، ولبس فروة مكفوفة بالسندس ، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة ، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر ، وكان يحب الحبرة وهى ضرب من البرود ، لكن غالب ثيابه وثياب أصحابه نسيج القطن والصوف والكتان

فسنته صلى الله عليه وسلم فى اللباس أن يلبس ما تيسر على أن لا يكون نوعه محرما • وكان يحب فى الطعام الحلوى، وقد أكل الضأن والدجاج والجزور ولحم الحبارى وطعام البحر ، وأكل الشواء والرطب والتمر، وشرب اللبن خالصا ومشوبا ، وشرب نقيع التمر، وأكل القديد والدباء ، والتمر بالزبد ، وكان لا يشرب الا النظيف العذب ، ويحب البارد الحلو ، وكان يجلب اليه الماء العذب من مسافة يوم أو يومين

لم يكن صلى الله عليه وسلم فى الطعام واللباس يرد موجودا ، أو يتكلف مفقودا، وما قرب اليه شىء من الطيبات

الا أكله ، الا أن تعافه نفســه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاما قط ، ان اشتهاه أكله ، والا تركه

هذا هدى القرآن والهدى المحمدى فى تناول الطيبات ، فمن تركها زهدا وتدينا وعبادة فلا حق له ، ومن أسرف فى الزينة واللذات فلا حق له ، ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له ، ومن اتبع القوام فهو من عبادالرحمن الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان أمرهم بين ذلك قواما

ومالك رضى الله عنــه امام فى الدين ، وامام فى التقى ، لبس الدقاق ، وأكل الرقاق ، وجلس على الوطىء ، واتخذ حاجبــا . وعابه يحيى بن زيد النوفلى ، فقال له مالك : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبــات من الرزق » ؟ غير أن مالكا تواضع فقال : ان ترك ذلك خير من الدخول فيه . وربما كان الترك خيرا حتى لا يزيد الناس على مالك فيسرفوا ، وهو قدوة ، فيكون عمله ســببا فى اسراف غيره

* « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً » :

الأثام : جزاء الاثم ، مثل النكال والوبال وزنا ومعنى .
والخلود : المكث الدائم ، ويستعمل فى المكث الطويل

من صفات عبادالرحمن التفكر فى خلق السموات والارض، واستعمال العقل واحترامه فيما هو خاص بسلطانه ويمكن أن يصل اليه ، فهم يستدلون بالعالم المصنوع على الخالق الصانع ، وعلى وحدته ووجوبه ، واختصاصه بالعبادة لاختصاصه بجميع صفات الكمال ، ولذلك لا يشركون فى عبادة الخالق أحدا ، حيا أو ميتا ، فى السماء أو فى الارض، لأن كل ما عداه لا يضر ولا ينفع ، ولا يحيى ولا يميت ،ولا يملك عند الله شفاعة الا باذنه ، فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستعان ، وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء

ومن صفاتهم عدم الاعتداء على النفس التى حرم الله قتلها، فلا يقتلونها الا بحق : من كفر بعد اسلام ، أو زنا بعد احصان ، أو قتل نفس

ومن صفاتهم المحافظة على العرض ، فلا يقربون ما حرم الله قربانه عليهم

نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه المنكرات الشنيعة، بعد أن وصفهم بالصفات السابقة من العبادة ، والخوف من النار ، ومن حق هذه المنكرات أن يسبق نفيها على ذكر الاوصاف السابقة ، فان الموصوف بالاوصاف السابقة لا يمكن أن يكون متصفا بشىء من هذه المنكرات . وسبب هذا هو التعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه بعد أن وصف عباده بالصفات السابقة قال: والذين هم مطهرون مما أنتم عليه

وعن ابن مسعود : قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال :

أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك. قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك

بعد أن نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه الموبقات، بين عقاب مقترفها فقال : انه يلقى نكالا ، ويضـــاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه محتقرا ذليلا ، يجمع بين العذاب المادى والعذاب الروحى

واسم الاشارة فى قول الله « ومن يفعل ذلك » عائد على الأمور الثلاثة ، وهى : الشرك ، وقتل النفس ، والزنا ، كما هو الظاهر . ولا خلاف عند العلماء فى مضاعفة العذاب والخلود لهؤلاء اذا فسرت مضاعفة العذاب بالتشديد فيه ، أو قيل ان الكفار يعذبون على المعاصى ، ويعذبون على الشرك، وأما اذا قيل ان الكفار لا يعاقبون على المعاصى فلا بد من ارادة الشدة فى تفسير مضاعفة العذاب . ولا شبهة فى أن العذاب على الكفر شديد . ويدل على أن اسم الاشـارة مرجعه الأمور الثلاثة ما ذكر فى الاستثناء من قوله سبحانه : « الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » فان نقيض ذلك هو الشرك وغيره من المعاصى وهى هنا قتل النفس والزنا

بين الله سبحانه جزاء مرتكب هذه الموبقات ، ثم بين أن الذى يقلع عنها ويرجع الى الله سبحانه ، فيؤمن به ، ويعبده لا يشرك معه غيره ، ويعمل الصـالحات ، يبدل الله سيئاته حسنات ، والله غفور رحيم

فما معنى هـــذا التبديل ؟ وهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

قال قوم : التبديل فى الدنيا ، ومعناه أنهم يوفقون الى محاسن الاعمال ، يؤمنون ولا يشركون ، ويجـــاهدون فى سبيله فيقتلون أعداءه ولا يقتلون أوليـــاءه ، ويعفون ولا يفجرون . فالتبديل تيسير للاعمال الصالحة ، وتوفيق اليها .

وقال بعضهم : التبديل فى الآخرة ، وأحسن ما قيل فيه : أنه يضع بدل عقاب السيئة ثواب حسنة ، فهو تبديل الجزاء لا تبديل الاعمال

والاستثناء فى قوله : « الا من تاب » مع قوله « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ينفى العذاب كما ينفى مضاعفة العذاب بعد التوبة

ومعنى قول الله سبحانه : « ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا » أن من يترك المعاصى ويندم على فعلها ويدخل فى العمل الصالح ، فانه بذلك يعد تائبا الى الله متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا ومحصلا للثواب . وقد قيل : لله أفرح بتوبة العبد من المقل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد

وقد قيل : انها نزلت لبيان أن من يتوب بعد نزولها له حكم من تاب قبل ذلك ، فان المشركين الذين كانت آية « والذين لا يدعون مع الله الها آخر » تعريضا بهم ، ظنوا أنها خاصة بمن آمن قبل نزولها ، فنزلت هذه الآية لبيان أن حال التائبين سواء

* « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » :

الزور : الباطل . وأصله تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل الى من رآه أنه خلاف ما هو به . ومن عادة صاحب الباطل أن يزينه ، فهو يزين الشرك ، وينمق الكذب ، ويحسن المعاصى . وحضور الزور شهوده

واللغو : كل ما ينبغى أن يطرح ويلغى . وأصل كلمة

الكريم مأخوذة من قولهم : ناقة كريمة ، اذا كانت تعرض عن الحلب تكرما ،كأنها لا تبالى بما يحلب منها لغزارةلبنها، واستعير ذلك للصفح عن الذنوب

من صفات عباد الرحمن أن لا يحضروا باطلا ، ولا يساعدوا عليه ، وأن ينكروه ، فهم لا يحضرون مجالس الشرك والعصيان بأنواعه ، ينزهون أنفسهم عن الشر وأهله، فان مشاهدة الباطل اعانة عليه وشركة فيه • ومن كلام عيسى : « اياكم ومجالسة الخطائين » • وشهادة الزور أمام القاضى من الزور المنهي عنه • ولا يجوز أن يخص الزور بالشرك أو الكذب أو بالخوض فى القرآن والانبياء، بل يجب أن يكون عاما لكل باطل

لا يحضرون الباطل ، واذا مروا به مروا كراما ، معرضين عنه ، منكرين اياه ، واذا قدروا على تغييره غيروه • وقد يكون مر الكرام بالمجالدة بالسيف كما اذا مر على قاطع طريق واستغاث به أحد ، فمر الكرام اذ ذاك يكون بالنجدة ولو أدى ذلك الى استعمال السيف

* « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » :

خر : سقط • واذا قلت : خر أعمى أصم ، فمعناه الحرفى سقط أعمى أصم ، ولكن العرب لا تريد ذلك من مثل هذا ، بل تريد : أقبل عليها أعمى أصم • واذا قلت : لم يخر على الآيات أعمى أصم ، كان معناه : لم يقبل عليها كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ما فيها ، مع اظهار الحرص عليها

ونظير هذا التركيب من كلام العرب قولهم : سببت فلانا

فقام يبكى ، يريدون فظل يبكى ، ولا قيام هناك ، ولعله أن يكون بكى قاعدا ، ونهيت فلانا عن كذا فقعد يشتمنى ، معناه فجعل يشتمنى ، وقد لا يكون هناك قعود. جرى هذا على ألسنتهم وفهموه

ومعنى الآية : أنهم اذا ذكروا بآيات الله أكبوا عليها وأقبلوا ، سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية ، فليس حالهم كحال من اذا ذكر بالآيات رأيته كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ، ومن يسمع بآذان واعية وعيون راعية يتدبر الآيات ، ويتذكر ويتعظ ، ويتبصر ، ويقف عند الحدود ، ويرعى حق الواحد المعبود

* «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» :

قرة العين : هى السرور والفرح ، مصدر من قرت عينك قرة ، اى فرحت وسررت ، لأن الفرح يجعل العين قارة ، أو لأن دمعة العين من السرور باردة

والامام : الحجة المقتدى به. ووحدت القرة لأنها مصدر ، ولا تكاد العرب تجمع المصادر . ووحد الامام لأنه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة ، واذا ذهب به هذا المذهب وحد ، ويكون معناه : حجة ، تقول : هم امام أى حجة ، كما تقول: هم بينة . وقال بعضهم : ان الامام جمع آم ، كصيام فى جمع صائم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة جاهلة ، على أشد حالة بعث عليها نبى فى فترة ، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل ،

وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل يرى ولده ووالده وأخاه كافرا ، وقد فتح الله قلبه للاسلام ، وهو يعلم أنه ان مات قريب له من هؤلاء دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، لذلك كان المسلمون يطلبون من الله أن يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم من يطيع الله ويعبده لتقر عينهم بهذا • ومن الطبيعى فى النفوس أن يحب الشخص لذريته وأهله ما يحب لنفسه ، وأن يتمنى أن تكون البيئة التى هو فيها من ذريته وأزواجه بيئة صالحة • والبيئة الفاسدة تجعل العيش مريرا ، وتذهب بالفكر وتقسمه ، فلا يستقيم عيش ، ولا تتجه النفس إتجاها كاملا الى الخيرات والعبادات والنفع العام

من صفات عباد الرحمن أن يطلبوا ذرية صالحة مؤمنة ، وازواجا مؤمنات . ومن صفاتهم أن يطلبوا من الله درجات عاليات فى التقوى والطاعة يشار اليها ، ويقتدى بهم فيها

* « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » :

الغرفة : العلية . وكل بناء عال فهو غرفة . وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات ، لدلالة الواحدة على الجنس ، بدليل قوله سبحانه : « وهم فى الغرفات آمنون » ، وقوله : « لهم غرف من فوقها غرف » والمراد بها الدرجات العالية فى الجنة . **والتحية** : الدعاء بالتعمير . **والسلام** : الدعاء بالسلامة

بين الله سبحانه انه أعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح أعمالهم هو الدرجات العالية فى الجنة ، وفيها تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام ،

فيدعون لهم بالتعمير والخلود ، ويدعون لهم بالسلامة . هذه الدرجات استحقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات ، وعلى ترك الشهوات ، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر والمصائب ، وغير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه . وهذا دليل على أن المؤمنين يستحقون الجنة باعمالهم . وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه ، وهو صاحب الفضل فى وعد عباده بالجنة ، وبهذا الوعد استحقت الجنة

* « قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » :

يقال : **ما اعبا** بفلان ، اى ما اصنع به ، كانه يستقله ويحتقره ، فوجوده وعدمه سواء . وهو بمنزلة قولهم : لا وزن له عندى

أمر الله سبحانه رسوله أن يقول للناس : انه لا وزن لهم عنده لولا العبادة ، فلولاها ما اكترث بهم ، ولا يوجد معنى آخر ينظر اليه الله سبحانه فى عباده سوى العبادة ، لأنه قال : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . فلولا الايمان والعبادة والتوجه اليه فى الشدائد ، وشكره على الاحسان ، لما نظر اليهم نظرة اعتداد ، وهو فى غنى عن العبادة لا شبهة، وما طالبهم بها الا لمصلحتهم ومصلحة الخلق ونظام العالم

ثم وجه اليهم الخطاب فقال : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » : يعنى فقد خالفتم بالتكذيب حكمى ، وسوف يلزمكم اثر ذلك التكذيب ، فتكبون فى النار . ونظير ذلك ان يقول ملك لمن استعصى عليه : من عادتى أن احسن الى من يطيعنى ويتبع امرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما احله بك بسبب العصيان

والخطاب موجه الى الناس عامة ، ومنهم مؤمنون عابدون ، ومنهم مكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد فيهم من العبادة بقوله : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » ، وبما وجد فيهم من التكذيب بقوله : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما »

والآن نلخص اوصاف عباد الرحمن : فهم هينون لينون لا يمشون فى الارض فسادا ، وهم صابرون على الأذى لا يجهلون على من يجهل عليهم ، وهم قائمون الليل فى عبادة الله ، قانتون وجلون ، يطلبون النجاة من العذاب ، وهم على العدل والقصد فى اموالهم لا يسرفون ولا يقترون ، ولا يعبدون غير اله سبحانه ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ، ولا يفجرون ويعتدون على من حرم الله، ولا يحضرون مجالس الباطل ، واذا مروا بها مروا كراما ، واذا ذكروا بآيات ربهم اقبلوا عليها مستمعين واعين ، وهم لا يحبون وسط السوء وبيئة المعصية ، فهم يطلبون ذرية صالحة ، وازواجا صالحات ، وهم راغبون فى الطاعة يطلبون ان يكونوا ائمة فيها يشار اليهم ويقتدى بهم

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين أعد الله لهم غرفا فى الجنة ، ودرجات عالية ، تحييهم الملائكة وتسلم عليهم ، ووعدهم الخلود فى تلك الغرف ، وهو نعم المستقر ونعم المقام

وقد اشتملت هذه الأوصاف على ما يسمى الضروريات، وهى حفظ النفس والعرض والمال ، وحفظ العقل من التدنى فى الرجس والاشراك والمعتقدات الفاسدة ، وعلى حال العبد مع الله ، وحاله مع الناس

نسأل الله ان يجعلنا واياكم من عباد الرحمن فى غرفات الجنات ، نلقى من الملائكة تحية وسلاما

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

* « الم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » :

« **الم** » : هذه وأمثالها من أسماء حروف الهجاء التي ابتدأ الله بها بعض سور القرآن أسماء للسور المبتدأة بها ، ولا يجوز حملها على غير ذلك ، لانها لم توضع فى لغة العرب لمعان غير الحروف ، والقرآن جار على لغة العرب فى مفرداته ونظمه وأسلوبه ، فلا يفسر بغير ما تفيده لغة العرب ، فاذا لم تجعل ألقابا وأسماء للسور لم يكن لها معنى ، ومن الواجب أن يكون لكل شيء جاء فى القرآن معنى

وبعد ، فمن الممكن أن يقال فى سبب تسمية السور بها انه الاشارة الى اعجاز القرآن الذى امتاز به من سائر الكلام ، وكأن الله سبحانه يقول للمعاندين : ان القرآن من جنس

هذه الحروف التى تعرفونها ، وليس من مادة غير معروفة ، فاذا لم تستطيعوا الاتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء ، فقد وضح أنه ليس من جنس كلام البشر ، وبان أنه من عند الله

« تلك آيات الكتاب الحكيم » :

الآية : معناها فى الأصل العلامة الظاهرة ، ثم أطلقت على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن ، والتى يفصل بعضها عن بعض بالوقف فى التلاوة ، وفى الكتابة ببياض أو نقط أو عدد

والعمدة فى معرفة الآيات وعددها هو التوقيف المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم . وسميت هذه الأقسام آيات ، لأنها دلائل على الأحكام والحكم ، والمعارف الدقيقة والعقائد الحقة ، ثم هى بعد ذلك دلائل أيضا على اعجاز القرآن

والكتاب الحكيم : هو القرآن الكريم المعهود عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند المخاطبين وقت نزول القرآن ، فقد وعد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينزل عليه من عند الله عند مبعثه ، وعرف ذلك أيضا فى الوسط الذى كان يعيش فيه ، وعرف هذا من قول الله سبحانه وتعالى : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا »

والحكيم هنا معناه : المشتمل على الحكمة ، وهى اصابة الحق . ومتى كان القرآن مشتملا على الحكمة جاز أن يوصف بانه حاكم لأنه يجب رد كل شىء اليه ، ومن ذلك قول الله: « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ، وجاز أن يقال انه محكم لا فساد فيه ولا خلل : « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »

ومن المعروف أن آيات هذه السورة ليست أول الآيات نزولا ، وليست آخـرها ، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن تكون الاشارة الى آيات هـذه السورة ، وأن تكون الى التى قبلها ، وأن تكون الى جميـع ذلك ، والى ما سينزل بعد . والمعنى واضح بعد هذا ، وهو أن الآيات التى تتألف منها سور القرآن فيها الحكمة ، وفيها الخير والسعادة ، وفيها العلم والرشاد ، وفيها الدلالة الى طريق الحق ، فهى صلاح العباد فى الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها أجزاء القرآن الحكيم المنزل من رب العباد لصلاح حالهم وسعادتهم

« هدى ورحمة للمحسنين » :

تطلق **الهداية** على الدلالة على طريق الحق ، سـواء أوجد معها الوصـول الى البغية أم لم يوجـد ، ومن ذلك قوله سبحانه : «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»

وتستعمل بمعنى أخص وهو الدلالة على طريق الحق مع الوصول اليه ، كما فى هذه الآية ، وسيتضح بعد

والرحمة هنا معناها : الانعام والافضال . ويقال **الاحسان** على الاحسان فى العقيدة ، وفى العمل ، وفى القول ، وهو أن تكون العقيدة حقة ، والعمل صالحا خالصا لله سبحانه ، والقول سديدا رشيدا

وقول الله سبحانه : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » يدل على أن الاحسان فوق العدل ، فالعـدل أن يعطى المرء ما عليه ، ويأخذ ماله . والاحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، ولذلك قال الله سبحانه : «ان الله يحب المحسنين »

وفى الحديث الصحيح : «كان صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل ، فقال : ما الايمان ؟ . قال : أن

تؤمن بالله وملائكته ، وبكتابه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : ما الاسلام ؟ قال : أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان. قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . ثم أدبر الرجل ، فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » . وخير ما يفسر به كتاب الله ما صح عن رسول الله

فهذا هو الاحسان فى العبادة ، وهى تشمل العقيدة والعمل الصالح . فاذا راعي المؤمن في كل شيء يؤديه ، وفى كل شيء يدعه ، أنه يرى الله أو أن الله يراه ، تحقق الاخلاص فى العمل لا شك ، وأدى العمل على أحسن الوجوه وأكملها. وملاحظة الله سبحانه فيها ملاحظة صفاته جميعها أو أظهرها، وهى الخلق ، والأمر ، والتدبير ، والحكم فى يوم الجزاء ، وتوزيع المكافأة على الأعمال . وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة ترشد الى طلب استحضار الذات فى العبادات ، من ذلك قوله سبحانه : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين. ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » . ثم هو يذكر الناس دائما بأنه معهم : « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » . « وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير». « انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ». وقد وعد الله المحسنين أن يوفيهم أجرهم : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . « ان الله لا يضيع أجر المحسنين »

وصف الله سبحانه وتعالى آيات الكتاب الحكيم بأنها تهدى المحسنين فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، وبأنها تأخذ

بيدهم الى طريق الحق ، وتشرح صدورهم ، وتعينهم معونة خاصة تسهل عليهم الطاعات وترك المعاصى ، وتبلغهم أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة ، وتفتح لهم أبواب المعرفة والعلم ، وبأنها نعمة من الله وفضل ، بها صلاح الانسان فى الدنيا ان اتبعها ، وفيها عزه وطمأنينته ان عمل بها واعتبر، وفى الاعراض عنها ذله وشقاؤه • وكما وصف الله الآيات هنا بأنها هدى للمحسنين ، وصف الكتاب فى سورة أخرى بأنه هدى للمتقين ، ووصفه مرة أخرى بأنه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين

فى هذه المواضع جميعها يجب أن تفسر الهداية بأنها الدلالة الموصلة الى المطلوب فعلا ، وهى الدلالة مع المعونة الخاصة ، وتيسير الطاعة ، وشرح الصدور لها • لكن الله سبحانه فى آية أخرى وصف الكتاب بأنه هدى للناس ، مثل قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » ، ومثل قوله : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، فجعله فى ذاته هاديا • ومثل هذه الآيات تفسر فيها الهداية بأنها الدلالة الى الحق ، ولا يؤخذ فى معناها الوصول الى المطلوب

والقرآن لا شك أنه فى ذاته دال الى طريق الحق ، لأن آياته الخاصة بذات الحق وصفاته تقرر الحق الثابت الذى اهتدت اليه العقول الصحيحة من غير معونة بالأديان ، وسيظهر هذا فيما بعد عند ذكر لقمان وحكمته ، ولأنه يعتمد دائما فى الاستدلال على ما هو ظاهر واضح ثابت فى كتاب الوجود الذى يدل دلالة قاطعة على الخالق وعظمته وقدرته ، ولأن آياته التى اشتملت على أصول الأخلاق هى أكمل ما يمكن أن يتصف به الانسان فى هذه الحياة ، ولأن نظمه للجماعة الانسانية هى النظم الحقة التى سعد بها الناس عندما عملوا بها ، وما هذا الشقاء الذى يكتوى العالم بناره،

ويعمهم شره ، الا نتيجة البعد عن الهدى الالهى ، وثمرة لهذه المذاهب الضالة التىاخترعها الملاحدة وزينوها للناس، وليس هذا الخزى والعار الذىعليه المسلمون اليوم الا نتيجة الايمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ، ونتيجة اغفاله وعدم تدبره ، ولذلك حق عليهم قول الله سبحانه : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون »

صدق الله ، فقد حق الخزى فى الحياة الدنيا عليهم ، أما جزاء الآخرة وهو أشد العذاب فسيلاقيهم ، لأن اللهصادق الوعيد كما هو صادق الوعد

القرآن فى ذاته هدى ، وفى ذاته رحمة ، لكنه لا ينتفع به الا من يقبل عليه ويؤمن به ايمانا كاملا ، ويخلص فى عمله اخلاصا كاملا • ومثله مثل نجوم السماء : هى هادية فى ذاتها لكنها لا ينتفع بهدايتها الا العلماء • فليس العيب عيب الكتاب ، لكنه عيب أهل الكتاب•وقد قرأ بعض القراء هدى ورحمة بالنصب ، وبعضهم هدى ورحمة بالرفع،وهما قراءتان صحيحتان لا تختلفان فى المعنى

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » :

هذه أوصاف المحسنين ، فهم الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون

وقد سبق فى بيان معنى الاحسان ما يفيد أنه أخص من الايمان وأخص من التقوى • ونحن نعلم أن الله سبحانه وصف المؤمنين فى سورة المؤمنين بأكثر من هذه الاوصاف، ووصف المتقين فىأولسورة البقرة بأكثر منهذهالاوصاف، وبين صفات أهل البر بأكثر من هذا فى قوله : « ليس البر

أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »

فما هو السر فى الاقتصار هنا على هذه الصفات القليلة فى بيان المحسنين الذين هم أخص من المؤمنين ومن المتقين ؟

الجواب : أن الله سبحانه لم يرد هنا بيـان جميع صفات المحسنين ، بل ذكر صفة لكل أصل من أصول الخير، وأصول الخير ثلاثة : صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية، وتهذيب النفس وتطهيرها • وأكمل أمثلة تهـذيب النفس الصلاة ، وأكمل أمثلة الاحسان الى الجماعة بذل المال • وفى الايمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء ، ايمان بالله سبحانه وبالكتب المنزلة وبالرسل ، فهو مثال كامل لصحة العقيدة

اقامة الصلاة : تقويمها وتجـويدها وحفظها من أن يقع فيها فساد فى صورتها أو فى حقيقتها • أما صورتها فهى الاعمال والاقوال المعروفة • وأما حقيقتها فهى الاخلاص لله سبحانه ، واستشعار سلطانه وقهره

والصلاة فى الاسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية • وفاتحة الكتاب اذا روعى معناها أثنـاء التلاوة ، من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها ، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص المبرأ من أية شـائبة للشرك • واذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها ـ وهو ذلك الاخلاص الذى وصفناه ـ كانت جسما لا روح فيـه ، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب، والنهى عن الفحشاء والمنكر، والتخلص من الهلع والجزع عند النوائب ، والله سـبحانه

يقول : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، ويقول : « ان الانسان خلق هلوعا : اذا مسه الشرجزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين »

والأفضل أن تفسر الزكاة هنا باخراج المال وانفاقه فى سبيل الله ، وفى سبيل اغاثة الملهوفين والبائسين ، وفي سد حاجة الافراد والجماعات ، فتشمل الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع الصدقات ، وذلك لأن الله سبحانه يذكر فى هذه الآية أوصاف المحسنين الذين هم أكمل من المؤمنين والمتقين

وصفة الاحسان لا تتحقق بالاقتصار على الزكاة المفروضة، وقد عمم الله فى صفات أهل البر عند ذكر الانفاق فقال : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة » ، وأهل البر لا يزيدون على أهل الاحسان فى أحوالهم • والمراد بالآخرة الدار الآخرة وهى دار الجزاء

والايمان بالآخرة يشمل الايمان بما فيها من جنة ونار وحساب وعدل فى توزيع الجزاء على الاعمال

واليقين : اعتقاد مطابق للواقع لا يقبل الزوال أو الشك • ويطلق باطلاق آخر على الاعتقاد الجازم المبنى على الخبر الصادق أو على الأدلة والأمارات ، فهو العلم مع تحقيق الأمر وازالة الشك ، والثانى أقرب الى اللغة من الاطلاق الاول • اليقين يملك النفس ويصرفها حتى لا تجد عنه منصرفا ، وتظهر آثاره على الجوارح ، وأول آثار اليقين العمل به ، وأن تجد النفس مضطرة اضطرارا الى لزومه ، وطريقه النظر الصحيح وتلخيص الأدلة

والقرآن الكريم عند تدبره وشرح الصدر به يبعث فى النفوس أكمل اليقين ، وفى الجوارح أعظم آثار اليقين

« أولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون » :

هؤلاء المحسنون الذين ذكرت أوصافهم هم المستقرون على الهدى والمتمكنون منه ، لأنهم أحسنوا فى جميع العقائد والاعمال والاقوال ، وهذبوا نفوسهم وطهروها ، وملأ اليقين قلوبهم بعد تمكنهم من الأدلة . وهؤلاء المحسنون هم الفائزون المفلحون في الآخرة بنعيم الله وجناته ورضوانه ، وفى الدنيا بطمأنينة النفس وسعادتها والرضا بالأقدار ، فهم فى نعيم روحى وان كانوا فى الظاهر فى الشقاء ، وكل ما يصيبهم من ألم وفقر وبلاء يردونه الى القدر ، وهم راضون بالقدر فرحون ، ينتظرون جزاء الله

وقد قيل : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره الا بصير ، ونجوم السماء يبصرها البصراء، ولا يهتدى بهديها الا العلماء

وقد قيل أيضا : العجب كل العجب من الشاك فى الله وهو يرى خلقه ، وممن يعرف النشأة الأولى وينكر النشأة الآخرة ، وممن ينكر البعث والنشور وهو فى كل يوم وليلة يموت ويحيا ، وعجب ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور !

وصف الله المحسنين بأنهم على هدى من ربهم ، والهدى من الله سبحانه أكمل أنواع الهداية ، لأنه الهدى الذى لا خطأ فيه ، وفيه الأمان من الزيغ . وهناك ضروب أخر من الهداية ، منها هداية الالهام والفطرة ، وهداية المشاعر والحواس ، وهاتان الهدايتان تشملان أنواع الحيوان . وهناك هداية العقل الذى يصحح خطأ الحواس ويعلل الاشياء ويستنبط ويقيس ، وهى خاصة بالانسان ، وبها ذلل أسرار الطبيعة ، وفسر كتاب الوجود

لكن أفضل هذه الهدايات وأقواها هى هداية الدين ، وهى لطف عظيم من الله سبحانه . حيث أرشده الى ما لا

يستطيع بعقله أن يدركه ادراكا صحيحا ، وأزال حيرته

وقد بينت فى حديث من أحاديث السنين السابقة على وجه التطويل ضرورة هذه الهداية الالهية للنوع الانسانى، فأكتفى الآن بهذا القدر من البيان

وأسأل الله أن ينفعنا بالهدى الالهى ، ويشرح صدورنا بقبوله وفهمه والعمل به

* « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » :

بعد ان بين الله سبحانه فى الآيات السابقة أن آيات القرآن فيها هداية وفيها رحمة وانعام للمحسنين ، وبعد أن بين أمثلة لأصول الفضائل التى يتصف بها المحسنون ، ذكر فى هذه الآيات ان طائفة من الناس يتركون آيات الله ويعرضون عنها ، ويسخرون من الطريق المستقيم الذى هو طريق الله وسبيله ، ويقبلون على الباطل الذى يلهى عن الحق ، ويختارونه ، واذا تليت عليهم آيات الله ولوا عنها مستكبرين لا يعبأون بها ولا يرفعون رؤوسهم عند سماعها زهدا فيها واستكبارا ، فكأنهم لم يسمعوها ، بل كأن فى آذانهم ثقلا لا يستطيعون معه سماعها

سبيل الله : هو الحق الثابت فى ذاته ، الحق الذى تدركه العقول الصحيحة والفطر السليمة ، والدلائل قائمة عليه ،

والناس متمكنون منه ، وكأنه فى أيديهم وملك لهم ، وفضلا عن ذلك فان الله سبحانه لم يترك عباده لهذه الهداية العقلية والالهام الفطرى ، بل اكمل نعمته واتم رحمته ، وارسل الرسل تترى مبشرين ومنذرين ، ينبهون الغافل ، ويحركون الجامد ، ويضيئون بصيرة من انطفأت انوارهم ، ويرققون شعور من غلظت مشاعرهم

مع هذه الهدايات جميعها فان من الناس من يتركها ، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله

هؤلاء تركوا ما بأيديهم وباعوه ، واختاروا الباطل واشتروه ، وهم جاهلون بما يعود عليهم من الاثم والضرر ، وبما فاتهم من السعادة والنفع ، وهم جاهلون بقوانين البيع والشراء وأصول الربح فى التجارة. ونظير ذلك قوله سبحانه : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »

الناس بعد دعوة الرسل أقسام : منهم من يعرف الحق ويجحده عنادا واستكبارا ، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله

ومنهم من لم يعط الدعوة حقها من النظر والعناية ، اعتمادا على تقليد ما كان عليه الآباء ، واستمراء لما كان عليه الناس من شهوات ، فزق من الخمر ، وقينة تغنى ، وقصائد من الشعر تنشد ، خير من الآيات والتقيد بالحدود. وسبيل هذا غير بعيد عن سبيل القسم الاول

من الناس فريق مؤمن بالقرآن اجمالا وبرسالة محمد ، ويعظمهما ويجلهما ، فاذا قلت له : لم لا تقطع يد السارق وتحد القاذف ، ولم لا تحكم القرآن فى الحياة ونحن مؤمنون به ؟ هز كتفيه وابتسم ، او زاد : انها رجعية لا يحتملها تمدن العصر الحديث ! أليس هذا استهزاء بالآيات ،

واشتراء للباطل ، وضلالا عن سبيل الله !

هناك مقلدون للمذاهب فى العقائد والأحكام ، اذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبهم ولوا عنها ، وان كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها . أليس هذا شراء للباطل ، وبيعا للحق بغير علم !

هناك مذاهب ابتدعت فى الدين للضلال والاضلال ، بسبب السياسة ، وقسر مبتدعوها الآيات فى التأويل ليردوها الى مذاهبهم المبتدعة ، وجاء أتباعهم فقلدوهم

أما المبتدعون فهؤلاء أمرهم واضح : اشتروا الضلالة بالهدى ، وأما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا فى الآيات ويتدبروها ، عملا بقوله سبحانه : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا » . فهم أيضا اشتروا الضلالة بالهدى ، ولهم بعض العذر

هناك طوائف لم تبلغها الدعوة ، ومن هذه الطوائف من سمع برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يطلع على كتابه ولم يدعه أحد الى كتابه ، هؤلاء لا تنطبق الآية عليهم

وهناك أناس بلغتهم الدعوة ، وبلغهم الكتاب ، وأخذوا فى النظر والاعتبار ، ولم يصلوا الى شىء بعد الجهد والانصاف ، هؤلاء أمرهم الى الله . والرأى عندى أنه أرحم من أن يعذبهم

من الضلال ضلال بعيد : هو الضلال فى العقائد ، ومنه ضلال غير بعيد هو الضلال فى غيرها . وأهم أنواع هذا الضلال ترك الاعتبار والاستبصار بالقرون الخالية والأمم الماضية ، وترك التدبر فى صنع الله ، والانتفاع بما أودعه الله فى ملكه لمنفعة الانسان

هؤلاء الذين اشتروا لهو الحديث ، لهم عذاب مهين ، مثل

مخز، وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم بالعذاب الأليم ، والبشارة بالعذاب جرت مجرى السخرية والتهكم لأنها لا تكون الا بأمر سار مفرح ، وكأن الله يقول : هؤلاء ليس لهم عندى شيء أبشرهم به ، وان طلبوا البشارة فبشارتهم هى العذاب الأليم

مثل هذه الانذارات تتحقق فى الآخرة حتما بالنسبة للأفراد والأمم

أما فى الدنيا فقد تتحقق فى الأفراد وقد لا تتحقق ، لكنها بالنسبة للأمم دائمة التحقيق . ولم تنج أمة قط من عقاب الله فى الدنيا اذا أعرضت عن سبيل الحق واسترسلت فى الشهوات . والتاريخ شاهد صدق ، فاعتبروا يا أولى الأبصار

* « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ . خَالِدِينَ فِيهَا ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » :

جنات النعيم : هى دار الأبرار والمحسنين فى النشأة الآخرة ، كما أن النار دار الفجار والضالين

نؤمن بهما كما نؤمن بالبعث والحساب والجزاء ، لا نزيد فى ذلك كله شيئا على ما فى كتاب الله وسنة النبى التى رويت بالطريق المأمون

والخلود : المكث الطويل ، واستعمل فى لغة القرآن فى الدوام الأبدى ، فالجنة لا تزول ، وهم لا يخرجون منها

لم يذكر الله سبحانه ما آمنوا به ، ولم يذكر ما هى الصالحات ، فكل ذلك كان معروفا عند المخاطبين ، ومعروفا

الآن ، وهو مبين أكمل بيان فى آيات القــرآن ، منثور فى جميع سوره

وهذا الجزاء وعد به الله سبحانه وعدا حقا ، وهو منجز وعده ، ومنجز وعيده ، لا يعوقه شيء عن ذلك ، لانه العزيز الغالب القاهر ، لا يغلب ولا يقهر ، وهو الحكيم الذى يضع الاشياء مواضعها ، ويوجد كل شيء وفقا للنظام الذى قدره طبقا لعلمه الواسع

والعمل الصالح : عمل الشــخص نفسه لا عمل غيره • ومن قضايا الدين العامة : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » • وقد قيــل لنوح فى ولده : « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » • فلا يجوز أن يتكل أتباع الأنبياء وأتباع الأولياء وذراريهم عليهم ويلقوا ربهم بعمل غير صالح

والجزاء يقع على الايمان والعمل الصالح ، لا على الايمان وحده ، والآيات شاهدة بذلك،والعمل الصالح يقرن دائما بالايمان عند الوعد بالجزاء

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » :

الخلق : التقدير المستقيم ، وقد استعمل فى ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء • **وسماء** كل شيء أعلاه • ومجموع ما نراه فوق رؤوسـنا من كواكب ونجوم وسـدائم هو

السموات . **والعمود** معروف ، جمعه عمد وعمد . **والرواسى:** هى الجبال الثابتات فى الارض ، الغائرات فى الأعماق . ويقال **الزوج** لكل واحد من القرينين : الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، فالذكر زوج ، والأنثى زوج . ويقال أيضا لكل قرينين فى الحيوانات وغيرها

هذه الآيات وأمثالها من الآيات المتعلقة بالكون ، هى التى يعتمد عليها القرآن دائما فى الاستدلال على الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وتفرده بالايجاد ، واستحقاقه للعبادة . وفى الحق أنه لا يوجد شىء غيرها يمكن أن يقنع . واذا انحرفت الأدلة عنها أضلت وأظلمت البصائر . وكل ما فى كتب الكلام والفلسفة لا يمكن أن يهتدى به جمهور المسلمين، ونحن فى شك من أن العلماء اهتدوا به

وفد على أبى حنيفة جماعة من الدهرية ، فقال لهم : «ما تقولون فى خشب قطع من الاشجار بلا نجار وتجمع فكون سفينة جرت فى البحر مشحونة بالأحمال وقد احتوشتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بين ذلك كله تجرى على استواء من غير ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها، أيجوز ذلك عندكم فى العقل ؟» قالوا : « لا، هذا شىء لا يقبله العقل » . قال أبو حنيفة : « سبحان الله، اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير ملاح ، فكيف يجوز فى العقل قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها من غير حافظ ولا صانع ؟! » قالوا : « صدقت »

وقال رجل من علماء الغرب : « الله منظم الكون، والكون تأليفه فما أجهل الناس حيث يثنون عليه وهم عن عجائبه معرضون ! ان دراسة الكون عبادة صامتة ، وتسبيح عملى ، وعلم الكون يعلمنا أن الكون جميعه مرتبط بناموس لا يتعداه ، وأن نظامه البديع يدل على قوة وارادة وحكمة

أبدعته وسوته ، والعلم يهدينا الى الحدود التى لا نستطيع تجاوزها ، ويرينا أننا عاجزون عن ادراك حقيقة كنه الله » انتهى حديثه

هذا الوجــود هو كتاب الله الذى لا تنتهى كلماته ، ولو كانت البحار مدادا لكلماته لنفدت قبل أن تنفد كلماته

وفهم كتاب الوجــود هو السبيل الوحيد لادراك عظمة الخالق وسعة علمه ، ورحمته وحكمته

ولقد كانت جهالات أهل الدين قوية،حين رأوا الانصراف عنه · لقد جنوا جناية لا حد لها على الاســلام والمسلمين · ولقد ورثت الأجيال المتأخرة عنهم آثار هذه الجناية·وبعيد أن يغفر الله أمثال هذه الزلات

« خلق السموات بغير عمد ترونها » :

السموات : مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم · وهى مرتبة بعضها فوق بعض ، تطوف دائرة فى الفضاء،كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الالهى ونظام الجاذبية ، ولا يمكن أن يكون لها عمد تعتمـد عليها ، والله هو ممسكها ومجريها الى الأجل المقدر لها

فاذا قيــل ان نظام الجاذبية وهذا الناموس الالهى قائم مقام العمد ، ويطلق عليه اسم العمد ، جاز أن نقول ان لها عمدا غير منظورة·واذا لاحظنا أنه لا يوجد شىء مادى تعتمد عليه ، وجب أن نقول انها لا عمد لها

وأقدار الأجرام السماوية وأوزانهــا ، أقدار وأوزان لا عهد لأهل الارض بها · والارض نفسها اذا قيست بهذه الأجرام ، ليست الا هباءة دقيقة فى الفضاء

وليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ومادته وأبعاده وأقداره وأوزانه ، لكنه يجب أن يلم بطرف

يسير منه ليدل به على القدرة الالهية ، ويشير اليـــه للعظة والاعتبار

قرر الكتاب الكريم أن الارض كانت جزءا من السموات وانفصلت عنها ، وقرر الكتاب الكريم أن الله « استوى الى السماء وهي دخان » ، وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هـو الذى دل عليه العلم • وقد قال العلماء : ان حادثا كونيــا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها،وان هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار ، تكسرت وصـــارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبها ، والارض واحد من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات

فليست الأرض هى مركز العالم كما ظنــه الأقدمون ، بل الشمس هى مركز هذه المجموعة • والشمس وتوابعها قرى صغيرة فى العالم السماوى • وأين هى من الشـعرى اليمانيةالتى قال الله سبحانهفيها : «وأنه هو ربالشعرى»؟ فهذا النجم قدرته علىاشعاع الضوء ، تساوى قدرةالشمس ٢٦ مرة ، وقدرته على اشعاع الحرارة مثل قدرته على اشعاع الضوء • فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محلالشمس يوما من الايام ، لانتهت الحيـــاة فجأة ، بغليان الأنهـار والمحيطات والقارات الجليدية التى حول القطبين • وضـوء الشعرى اليمانية يصل الينا بعد ثمان سنوات ، وضــوء الشمس يصل الينا بعد ثمان دقائق • فانظر الى هذا البعد السحيق

وليست الشعرى اليمانية أكبر نجم فى السماء ، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر منعشرة آلاف مرة

وعظمة السماء ليست فى الشمس وتوابعها ، كلا ، ان

عظمتها فى مدنها النجومية ، وفى أقدارها ، وأوزانها ، وأضوائها ، وأبعادها على اختلاف أنواعها

وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسها بما يزيد على ثلاثين مليونا من المرات • وهناك السدائم وهي قريبة من الخلق أول الأمر • ثم يقف علم الانسان • والله تعالى وحده هو الذى يعلم خلقه : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم »

« وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم » :

أى خلق الجبال فى الارض ، لئلا تميد الأرض وتضطرب• ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار :

ان الارض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها ، على بعد منها، وصلت بعض موادها الى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس ، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة ، أحاطت بما فى جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار ، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلفت الارض • وهناك جبال جدت من اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحار ، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الارض ، وتداخلها فى الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها

والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها ، وتوزعها وتغير اتجاهها ، وتكسر حدتها ، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة ، الصالحة للانبات ، والتى يغتذى بواسطتها الحيوان والانسان ، وتحفظها من أن تغور

فالجبال أولا ، حبست النار فى جوف الارض ، وصيرت الارض بعد ذلك صالحة للحياة • والجبال توزع ضغوط الطبقات ، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح •فهى

حافظة للارض من الميدان الذى يجىء بأسباب من داخل الارض ، والذى يجىء بسبب العواصف والرياح

« وبث فيها من كل دابة » :

أى فرق فيها الدواب من كل نوع من أنواعها ، بعد أن صلحت الارض للحياة بوجود الطبقات الارضية الصالحة للانبات ، وبوجود الماء النازل من السحاب • والحياة ظاهرة من الظواهر العجيبة التى وجدت على الارض ، لا يعرف سرها ، ويظن أنها بدأت على صورة بسيطة ثم أخذت تتعقد وتتعقد وتزداد تعقيدا حتى ظهر هذا النوع الانسانى الذى هو أكمل نوع من أنواع الحيوان ، فهو أحدث الانواع القادمة الى الارض ، ومع هذا فهو أكملها وأدلها على قدرة الخالق سبحانه ، وسعة علمه وحكمته

«وأنزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم» :

بعد أن مهد الله الارض ، وألقى فيها الرواسى ، ووجدت فيها طبقات متفككة طينية وغيرها تصلح للانبات ، يسر سبيله لفائدة الانسان وغيره من الدواب المنبثة ، فأنزل من السماء ماء ، وأنبت فيها كل زوج كريم من النبات • والماء النازل من السماء هو ماء الأمطار ، وهو من ماء البحار الملحة التى تتبخر بواسطة ناموس الحرارة فتصير سحابا تصرفه الرياح ، ثم ينزل مطرا يحيى به الله الارض بعد موتها ، ويسلكه ينابيع فى الارض تتفجر أحيانا من غير صنع الانسان ، وتتفجر أحيانا بصنعه • وكل نوع من النبات فيه الذكر والأنثى

وقد يكون الذكر وحده والأنثى وحدها ، كالنخل ، وقد تكون الشجرة مشتملة على زهرتين احداهما ذكر والأخرى أنثى

وقد تكون الزهرة مشتملة على الذكر والأنثى معا ، وعلى كل حال فعالم النبات كعالم الحيوان لابد فيه من التزاوج لبقاء النسل فى الانواع

وكل زوج من النبات كريم شريف ، وكل زوج من الحيوان كريم شريف ، ولكل شيء منفعة خلق لأجلها

ولا يلزم فى شرف النوع أن يكون محبوبا عند الانسان أو مفيدا للانسان، وتنوعات الحياة واشتقاقاتها أوجدت هذه الانواع ومنها الانسان

والنبات والحيوان يرجعان الى عناصر واحدة فى الارض لا تختلف فى أصولها ، بل تختلف فى طرق تركيبها من الذرات . وما زالت النواميس الالهية تعمل عملها ، ويزداد التعقيد فى تركيب الحيوان والنبات ، وتتدرج الانواع فى الرقى حتى وصلت الى ما نحن عليه . ومادة العالم جميعها واحدة من مبدأ الخليقة ، وهى السديم الذى مرت عليه الأطوار حتى صار نباتا وحيوانا ، وهذه هى وحدة الوجود، فالخالق واحد ، والمخلوق واحد أيضا

* « هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ . بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » :

بعد أن بين الله سبحانه أنه خلق السموات بغير عمد ، وألقى فى الارض رواسى ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزل من السماء ماء أنبت به من كل زوج كريم ، التفت الى المشركين الذين يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى ، ويستعينون بها ، فقال لهم : « هذا خلق الله » . والاشارة فى « هذا » لم تبق شيئا قط يمكن أن يشار إليه من

الموجودات ، فكأنه قال : هذه جميع الموجودات خلقهاورتبها وسواها ، فأروني شيئا خلقه هؤلاء الآلهة · ولا يمكن أن يكون الجواب سوى أنه لا يوجد شيء خلقه الذين من دونه، فتنقطع حجتهم ، وتقوم الحجة عليهم

وسيأتي في آخر السورة قوله سبحانه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »

وقوله سبحانه : « **بل الظالمون فى ضلال مبين** » معناه أنه لا توجد للكافرين شبهة في الاشراك ، لكن الضلال هو السبب في الاشراك ولا سبب غيره· والظالمون هم المشركون: « ان الشرك لظلم عظيم » · والظلم وضع الشيء في غير موضعه

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ . وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » :

اختلف الناس في **لقمان** هذا من هو ، ومن أى الأمم هو ؟ فقيل انه من بني اسرائيل ، وقيل انه كان عبدا حبشيا،وقيل انه أسود من سودان مصر ، وقيل انه يوناني، ومن الناس من جعله نجارا ، ومنهم من جعله راعي غنم ، ومنهم من قال انه نبي ، ومنهم من قال انه حكيم ، وكل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه · وبعد أن وصفه الله

بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم ، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيا مملوكا

وللقمان هــذا حكم كثيرة أسندت اليه . ومن النوادر اللطيفة المنسوبة اليه أن مولاه أمره بذبح شاة وأن يخرج منها أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، فالتفت اليه مولاه متعجبا ، فقال له لقمان : ليس هناك شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا شيء أخبث منهما اذا خبثا

والحكمة : اصابة الحق والعمل به ، فهى تشمل اصـابة الحق فى العقيدة ، وفى القول ، وفى العمل . فاصابة الحق فى العقيدة تكون بالعلم الصحيح الذى هو صفة محكمة فى النفس ، تحكم على الارادة وتوجهها الى القول الحق والعمل الحق المطابقين للعلم . والحكمة فى القول والعمــل : هى مطابقتهما للعلم الصحيح . فالحكمة العلمية لا شك تستدعى فهما وفطانة وفقها ، ومعرفة بارتباط الاسباب بمسبباتها خلقا وأمرا ، ومعرفة لبواطن الأمور وأسرارها . والحكمة العلمية على هذه الصفة تبعد صاحبها عـن مواطن الزلل ، وتسوقه الى مواطن الخير ، فيكون نافعا لنفسه ، ونافعا لخلق الله ، وتجعله حقيقا بالخــلافة عن الله فى الارض ، يعمرها ويصلحها ، ويستثمرها ، ويستخرج ما فيهـا من الأسرار التى أودعها الله سبحانه اياها

والشكر : استعمال المواهب والنعم فيما خلقت لأجله . وهو اعتراف بالحقائق الالهية ، وخضوع لها ، وفناء فيها ، ووقوف عند الحدود التى رسمها الخالق . وستأتى بقيـة للكلام عليه

والوعظ : تذكير بالخير بما يرق له القلب ، وزجــر عن الشر مقرون بتخويف

وشرك الانسان فى الدين ضربان : أحدهما الشرك العظيم ،

وهو اثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم الكفر وأبعد الضلال: « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » • « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » • والثاني الشرك الصغير ، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور ، وهو الرياء والنفاق ، وهو المشار اليه بقوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » ، ومن هذا قال عليه السلام : « الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا »

كان الحديث في الآيات السابقة يدور حول تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق ، واستحقاقه للتفرد بالعبادة ، وأنه هو وحده الذى يستعان به عند حزب الكرب واشتداد الضر والحاجة الى العون ، وحول الحجاج مع المشركين الذين أشركوا مع الله في العبادة آلهة أخرى ، فقد بين الله سبحانه أنه خلق السموات بغير عمد، وألقى في الارض رواسى أن تميد بأهلها وبث في الارض أنواع الدواب ، وأنزل من السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم ، وأنه لا يوجد لأى اله آخر مما يعبدون خلق مثل هذا ، وثبت بذلك أنه لا يجوز أن يسوى المخلوق بالخالق ، وأن من يفعل ذلك ظالم ضال

وفي هذه الآيات يقرر الله سبحانه أن الحكمة وشكر الله على نعمه قد وصل اليهما الانسان بعقله وبفطرته ، فقد شكر لقمان الله سبحانه وتعالى ووحده ، ووعظ ابنه بأن لا يشرك بالله شيئا ، وبين له أن الشرك ظلم عظيم • وقد وصل لقمان الى ذلك بالحكمة واستعمال العقل ، فليس الاعتراف بالخالق وتفرده بالعبادة مما يتوقف على النبوات، بل هو مما يصل اليه العقل وتدركه الفطرة

وقوله سبحانه : « أن اشكر لله » أن هذه هي التى يقول عنها النحاة أن المفسرة ، والأمر بقوله سبحانه : اشكر ، ليس أمر طلب باللفظ ، وانما هو أمر تكوين • والمعنى أن الله سبحانه وتعالى آتى عبده لقمان الحكمة وجعله شاكرا لله،

بأن هداه الى الحق ، وأعانه على الاستمساك به ، وعلى العمل به • وقد عرفنا الشكر من قبل ، وهو يوافق ما قاله بعض العلماء من أنه : ظهور أثر نعمة الله على لســـان عبده ثناء واعترافا ، وعلى قلبه شهودا ومحبة ، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة • فلسانه مشتغل بالثناء على ربه معترف له بنعمته، وقلبه مملوء محبة لله على هذه النعم،وشهودا بأنها منه فضلا واحســانا ، وجوارحه مشتغلة بطاعة الله استســـلاما له وانقيادا

والشكر يحفظ الله به النعمة على عبده،ويستجلب العبد به المزيد من ربه ، كما تدفع به النقم ، فما استحفظت نعم الله ولا استجلبت ولا استزيدت بمثل الشــــكر ، قال الله تعالى : « واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » • ومقام الشكر مقام جليل ، ولذلك مدح الله به نبيه ابراهيم فقال : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين، شاكرا لأنعمه » ، وقال عن نوح عليه السلام : « انه كان عبدا شكورا »

وفى الصحيحين « أن النبى صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه، فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا » ؟

وجملة القول أن كلمة الشكر من الكلم الجوامع التى تنتظم كل خير ، وتشمل كل ما يصلح به قلب الانســـان ولسانه وجوارحه• فالذى لا يحب الله ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم انما هو من الله فضلا واحسانا ليس بشاكر ، والذى لا يثنى على ربه ولا يحمده بلســـانه ويخوض فى البـــاطل ويشتغل لسانه بلغو القول ولهو الحديث ليس بشـــاكر ، والذى يعطيه الله من العلم شيئا ولا يعمل به ولا يعلمه الناس ليس بشاكر ، والذى يعطيه من المال ما يســـتعين به على طاعته بصرفه فى وجوه الخير والبر ويبخل به أو يصرفه فى

معاصي الله ليس بشاكر . ثم قال تعالى بعد ذلك :

« **ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غنى حميد** »

ومعنى هذا أن منفعة الشكر ليست عائدة على الله تعالى ، فانه تعالى لا ينتفع بشكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين ولا بمعصية العاصين ، فانه سبحانه وتعالى له الكمال المطلق ، فلا تنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه ، وانما منفعة الشكر عائدة على الشاكر ، فهو الذى ينتفع بالشكر ويكمل به وتكون له به السعادة ، كما أن مضرة الكفر عائدة على الكافر ، فالله سبحانه وتعالى هو الغنى المحمود ، الغنى عن عباده وعن طاعتهم ، وكل من عداه فقير محتاج اليه ، كما أنه مستحق للحمد لكمال صفاته ، ولكثرة نعمه على عباده ، سواء أحمدوه أم لم يحمدوه . قال الله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد »

ومن هذا يتبين أن امتثال أوامر الله على اختلاف أنواعها تعود منفعته الى العباد ، كما أن امتثال النواهى عائدة منفعته على العباد . فأوامر الله ونواهيه انما هى لغاية واحدة محمودة وهى سعادة العباد وكمالهم . فالتكاليف الالهية كلها انما هى لمصالح العباد ، ولذلك قال بعض السلف : ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ، ولا نهاهم عنه بخلا منه عليهم ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم

وقوله تعالى : « **واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم** » معطوف على معنى الآية السابقة ، وتقديره : آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه

شاكرا لنفسه ، وحين جعلناه واعظا لغيره • وذلك لأن علو مرتبة الانسـان في الحكمة أن يكون كاملا في نفسه ومكملا لغيره . وانما كان الشرك ظلما عظيما لأن فيـه تسوية بين المخلوق الذى لا نفع فيه وبين الخالق الذى منـه كل جود وخير ، ولأن فيه تحقيرا للنفس الانسانية الشريفة بأن تذل لمخلوق مثلها لا يستطيع لها نفعا ولا ضرا

* « وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ، أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً . وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » :

هذه الوصية جاءت معترضة بين وصايا لقمان لابنه ، لأن الذى سيأتي بعدها وهو قوله : « يا بنى انهـا ان تك مثقال حبة من خردل » الى آخر الآيات ، من كلام لقمان، وقد جاءت على سبيل الاستطراد لأغراض ، منها : أن طاعة الوالدين تابعـة لطـاعة الله ، حيث قال : « أن اشكر لى ولوالديك » ، ومنها تأكيد فظاعة الشرك وتأكيـد الابتعاد عنه ، حتى انه لا يجوز أن يطاع فيـه الوالدان اذا جاهـدا ولدهما عليه ولو حملهما عدم الطاعة على الموت . فقد روى أن سعد بن مالك أسلم فحلفت امه لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى تموت أو يكفر . وبقيت على ذلك ثلاثة أيام ، فقال لها سعد : والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن

ادع دينى ! فلما عرفت الجد وانه لا يرجع الى الكفر ، اكلت

وصى الله الانســان بوالديه ، وقد خصت الأم فى ضمن الوصية بالوالدين بما يثير العطف والشفقة ، حيث نبه الولد الى انها حملته وهى تضعف بحمله ضعفا على ضعف كلما تقدمت مدة الحمل ، وانها مع هذه المعاناة فى الحمل عانت ايضا مشقة رضاعه فى مدة الرضاع المقدر اكثرها بعامين ، وعانت مشقة السهر عليه وحفظه وكفالته

وقوله تعالى : « **أن اشكر لى ولوالديك** » الى آخر الآية ، تفسير لقوله : « ووصينا الانسان بوالديه » . وقوله : « **الى المصير** » معناه انك ترجع الى فاسألك عما كان من شكرك لى على النعم التى أنعمتها عليك ، وما كان من شكرك لوالديك وبرهما جزاء ما عانيا من مشقة فى تربيتك وكفالتك حال صباك ، وما وصل اليك منهما من بر وعطف وحنان

ومعنى « **وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم** » : اى تشرك بى شيئا مما لايصح ان يعلم على انه شريك لله ، وكل شىء غير الله يستحيل أن يتعلق به العلم على أنه يستحق مشاركة الله ، لأن العلم الصحيح يجب أن يكون مطابقا للواقع ، والواقع انه لا يوجد شىء يمكن أن يعلم على انه شريك الله . وقال الزمخشرى : أراد بنفى العـلم نفى ما أشرك به ، والمعنى : لا تشرك بى ما ليس بشىء وهى الأصنام ، ونظير ذلك قوله سبحانه : « ما يدعون من دونه من شىء » ، فقد بولغ فى نفى الشريك حتى جعل كلاشىء ، ثم بولغ حتى جعل مما لايصح ان يعلم ، لأنه من باب المجهول المطلق

وقوله سبحانه : « **وصاحبهما فى الدنيا معروفا** » : اى صحابا معروفا يرتضيه الشرع والعرف والكرم والمروءة من اطعام وبر وعدم جفاء ، ومن توقير واحترام وحلم واحتمال

« واتبع سبيل من اناب الى » : اى اتبع طريق المؤمنين منهما الذى يوافق دينك ، ولا تتبع سبيلهما فى دينهما الذى يخالف دينك وهو دين الحق

« الى مرجعكم » : اى تعودون الى يوم القيامة فأخبركم بجميع ما كنتم تعملونه فى الدنيا من خير او شر وأجازيكم عليه ، أجازى المحسن على احسانه والمسىء على اساءته . والجملة توكيد لقوله : « وان جاهداك »

* « يَا بُنَيَّ : إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » :

الضمير فى « انها » يعود على الخصلة والفعلة ، يعنى ان ما يعمله الانسان من خير او شر ، وان كان فى الصغر والقماءة مثل حبة الخردل ، وكان على صغره فى حرزمنيع كالصخرة ، أو بعيدا كأن يكون فى السموات أو فى جوف الارض ، يعلمه الله سبحانه ، وهو قادر أيضا على ان يأتى به ، فان الله سبحانه لطيف نافذ القدرة ، خبير عالم بكل شىء ، سواء كان ظاهرا أو خفيا

والغرض من هذه الآية وصف الله سبحانه بسعة العلم وشمول القدرة ، بعد وصفه بالوحدة والتفرد بالخلق والعبادة

والقدرة على الاتيان لا شك تكون بعد العلم ، فقوله سبحانه « يأت بها الله » معناه : يعلمها ويقدر على الاتيان بها

* « يَا بُنَيَّ : أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ

الْمُنكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » :

بعد ان خوف لقمان ولده من الشرك ، ونبهه الى انه ظلم عظيم ، وعلمه سعة علم الله سبحانه وشمول قدرته ، توجه اليه يعلمه ما يكون به رجلا كاملا فى نفسه مكملا لغيره :

أمره باقامة الصلاة ، وفيها طهر نفسه وتزكيتها ، وفيها تحقيق الصلة بينه وبين الله . وقد سبق فى تفسير أول السورة معنى اقامة الصلاة ، ويكفى ان نقول هنا : ان اقامة الصلاة تجويدها واشتمالها على الاخلاص لله

وطلب منه ان يكون خيرا نافعا للخلق ، وعضوا مفيدا فى الجماعة الانسانية ، وذلك بأن يامر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شعار الجماعة الفاضلة ، واذا فقد من أمة فقدت منها صفات الخير وضرت على الشر ، وهو واجب على كل واحد لكل واحد . وقد نبه الله سبحانه عليه فى آيات كثيرة من آى القرآن الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » ، « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اثر من آثار الايمان ، وأثر من آثار حب الفضيلة ، واساس من اسس صلاح المجتمع الانسانى ، وهو يوقظ الشعور ، وينبه الضمير ، ويخيف المقدم على المنكر . واذا تضامن الناس فى ذلك ـ

كما هو الواجب شرعا ــ وجد تضامن الناس على الفضيلة فلا تضيع بينهم ، ووجد تضامنهم على استنكار الرذيلة فلا توجد بينهم . وتضامن الناس على الفضيلة قد يوجد عند الأمم التى لاتدين بدين ، فيوجد عندها الطهر والشرف، وقد تفقده الأمم التى تدين بدين فتستحق لعنة الله !

بعد أن طلب منه أن يكون على صلة بالله باقامة الصلاة ، وطلب اليه أن يكون مكملا للناس ، طلب اليــه أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة ، واختار له منها مثالا هو أكمل أمثلتهـا وهو الصبر على المصيبة ، وعلى ما يناله من أذى ، سواء أكان ذلك فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أم كان فى غير ذلك . والصبر على المصيبات يبقى للعقل نوره ، ويبقى للشخص وقاره ، فلا يخرج عن حدود الله ، ولايذهب فى العقاب الى ما لا يرضاه الله . والصبر فى الحرب شجاعة ، والصبر على القيام بأوامر الله طاعة ، والصبر على مفارقة المال كرم . وعلى الجملة ففيه رضا الله سبحانه ، وفيه عز الفرد وعز الأمم « انما يوفى الصابرون أجرهم بغيرحساب»، « ان الله مع الصابرين »

وقوله سبحــانه : **« ان ذلك من عزم الأمور »** : اى من معزومات الأمور ومقطوعاتها ، اى مما قطعه الله وفرضه قطع الزام . وهذه الآية تدل على أن هذه الامور التى أوصى بها لقمان ولده معروفة عند الحكماء قبــل أن تجىء بهــا الأديان ، ومتواصى بها من خيار النــاس قبــل أن يرسل الانبياء . وفى الحقيقة انها عماد الخير ، وسنام الفضيلة فى كل أمة من الأمم ، سعد من اتبعها ، وشقى من ضل عنها

* « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي

مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » :

صعر خده وصاعر خده : معناهما واحد . والصعر والصيد : داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه . **والمرح** : الفرح مع البطر . **والخيلاء** : التكبر الناشىء عن تخيل فضيلة تراءت للانسان فى نفسه . **والفخر** : المباهاة بالأشياء الخارجة عن الانسان كالمال والجاه . **والقصد** : الاقتصاد ، بأن يكون على قدر الحاجة . **والغض** : النقص من الصوت الى القدر المطلوب

بعد ان أمره بتكميل نفسه وتكميل غيره ، نهاه عن الايذاء ، فنهاه عن لى عنقه وعدم مقابلة الناس بوجهه بغية التكبر عليهم ، ونهاه عن شدة الفرح مع البطر ، فان هذه صفات لا يرضاها الكرم والنبل ، وفيها تعاظم يؤذى الناس . ثم بين له ان الله لا يحب المختال ولا الفخور ، لأن الله يحب ان يكون الناس اخوة متحابين ، يعيشون كما يعيش الاخوة ، لا يتعاظم أحد منهم على أحد

بعد ذلك طلب لقمان الى ابنه ان يقتصد فى مشيه ، فلا يدب على الارض دبيب المتماوتين ، ولا يمشى عليها مشى الشطار ، كما طلب منه ان يجعل صوته على قدر الحاجة ، فان ذلك أوقر للمتكلم ، وأحفظ لقواه ولهيبته ، وادعى الى فهم السامع وابسط لنفسه . وقد بين لقمان شناعة رفع الصوت وفحشه فشبه من يرفع صوته من غير حاجة الى رفع الصوت بالحمار ، وشبه صوته بنهاق الحمار ، والحمار يضن بصوته عند الحاجة ، فاذا مات تحت الحمل لا يصيح ، واذا قتل لا يصيح ، ثم هو يصيح فى أوقات عدم الحاجة .

والحمار مثل فى الذم ، ونهاقه مثل فى الشناعة . وقد كانت العرب ترى ان اسم الحمار لا يذكر فى مجلس قوم من اولى المروءة ، ومن العرب من كان لا يركب الحمار ولو بلغت منه الرجلة ما بلغت . فالحمار ذميم ، وصوته ذميم ، وهوأوحش الأصوات واقبحها وانكرها

هكذا يؤدب الله عباده ، ويضمن كتابه ما فيه سعادتهم ، حتى لم يترك أدبهم فى المشى والحديث . ولو كانت الحكمة التى أوتيها لقمان والتى قصها الله فى القرآن هى التى لها السيادة على الناس ، لكان حال العالم اليوم أرقى وأرفع واشرف ، واكمل واهنأ واسعد مما هو عليه الآن

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » :

التسخير : سوق الشيء الى الغرض المقصود منه قهرا ، وهو على ضربين : ضرب يكون فيه المسخر منقادا للمسخر له ، يتصرف فيه كيف شاء ، ويستعمله كما يريد ، مثل الأشياء التى فى متناول الانسان فى الارض من جماد وحيوان ، وضرب يكون فيه المسخر سببا لحصول ما ينفع المسخر له من غير أن يكون له دخل فى استعماله ، كالأشياء الموجودة فى السماء من شمس وقمر ونجوم وسحاب ومطر ، فهى

اشياء نيطت بها مصالح العباد من غير أن يكون لهم تصرف فيها ، فحرارة الشمس سبب فى المطر ، والمطر يحيى النبات ، وحرارة الشمس سبب فى حياة النبات والحيوان ، وضوء القمر ينتفع به السارى ، والنجوم يهتدى بها فى البر والبحر . كل هذه الأشياء ينتفع بها الانسان من غير أن يكون له دخل فى تصريفها وتقديرها . وغير خاف ان منفعة هذه الأشياء جميعها ليست مقصورة على الانسان ، فهى مما ينتفع به النبات ، ومما ينتفع به الحيوان ، غير انه لما كان كل شىء من هذه العوالم قد انتفع به الانسان صار كانه المقصود بالانتفاع دون غيره ، وكان التسخير لم يكن الا لأجله

ومعنى **اسبغ** : اتم واوسع واكمل . **والنعمة** : ما ينتفع به وتحمد عاقبته ويقصد به الاحسان . والنعم الظاهرة : ما يدرك بالحواس الظاهرة ، والنعم الباطنة : ما يدرك بالحس الباطن أو يدرك بالعقل ، وقد لا يهتدى الى ادراكها الانسان ، وكم لله من نعمة لم يعرفها الانسان بعد . والعلم دائما يكشف عن نعم كانت مجهولة من قبل . وكل شىء من النعم لم يقصد الله به الا الاحسان ، لأنه لا يفعل شيئا الا لحكمة وغاية ، ولا شىء مما يفعله يعود نفعه اليه ، فهو الغنى الحميد . واذا كان ذلك كذلك فليست هناك حكمة فى ايصال النعمة وخلقها الا منفعة الانسان

والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، واصله المصارعة واسقاط الانسان صاحبه على الجدالة وهى الارض الصلبة . ثم استعمل فى المناظرة لا لاظهار الحق بل لارادة الغلبة والقهر

بين الله سبحانه فى الآيات السابقة انه خلق السموات بغير عمد ترونها ، والقى فى الارض رواسى ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزل من السماء ماء فانبت فيها من كل زوج كريم ،

ونبه المشركين الى ان ما عبدوا من دونه لم يخلقوا شيئا ، فهم لا يستحقون العبادة معه ، ولا يستحقون التوجه اليهم بطلب الاستعانة : «افمن يخلق كمن لايخلق ؟ افلاتذكرون» ؟! « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون »

ومن أخص صفات المعبود ان يكون خالقا غير مخلوق ، فانه لا يجوز فى نظر العقل ان يذل الانسان لمخلوق مثله لا يملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا

وفى هذه الآيات بين الله سبحانه أنه المتفرد بالنعمة ، فانه هو الذى سخر كل شيء فى السموات والارض لمنفعة الانسان نعمة منه وفضلا ، ففى الارض غذاؤه ومشربه وكساؤه ومركبه ، وفيها ملذاته ومسراته ، وفيها يزرع ما يحصده فى الآخرة من الاعمال الصالحة التى يسعد بها فى دار النعيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار فى جوار رب العالمين ، وفى السماء نجوم يهتدى بها ، وشمس هى سراج منير ، وقمر هو ضياء ، ولولا الشمس لتعطلت كل منفعة فى الارض نيطت بها سعادته ، فلا حياة لنبات ولا حياة لحيوان ولا حياة لانسان ولا مطر ولا سحاب الا بحرارتها ونورها ، فالسموات فى خدمة الانسان مذللة له ، والارض فى خدمة الانسان طوع امره يتصرف فيها كما يريد طبقا للنواميس المقدرة ، واذا كان هو المتفرد بالنعمة فهو المتفرد بالعبادة

ليذكر الانسان ان شربة الماء التى يروى بها ظمأه سخرت لها السموات والارض ، فحرارة الشمس سبب فى تبخر الماء الملح الأجاج من البحر ، وسبب فى ارتفاعه الى الطبقات العلوية ، ومنها يتساقط على الارض ماء عذبا ينقع الغلة ويحيى الارض بعد موتها ، وقرص الخبز يأكله الجائع سخرت له الشمس والارض ، وسخر له الحارث والحاصد والدارس ، والتاجر والطاحن والعاجن والخابز ، الى غير ذلك من الوسائط سخر الله ما فى السموات والارض لمنفعة الانسان

وسعادته ، ثم اكمل عليه النعمة واوسعها واتمها ، فمنحه قوى ظاهرة ، ومنحه قوى باطنة ، ومنحه العقل الذى استطاع به تذليل كل شيء ، والذى هو وسيلة المعرفة واكمل طرق الهداية ، والذى كشف به اسرار الوجود واهتدى به الى واجب الوجود ، واستعد به لان يتلقى الوحى عن خلق الخلق ومرسل الرسل ، ولان يكون خليفة الله فى الارض يعمرها

وخلاصة هذه الآية انها استدلال بالآفاق والانفس بعد الاستدلال بالخلق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟

سخر الله هذا كله للانسان ، واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، ومع هذا كله فان من الناس طائفة من الاغبياء الجهلاء الذين لم يستعملوا عقلهم فيما خلق له من النظر والاستدلال والعظة والاعتبار ، تنازع وتجادل فى الله تعالى وفى استحقاقه للتفرد بالعبادة ، وتعبد اصناما لا تضر ولا تنفع ، وتكذب بالبعث ، وتكذب الانبياء بعد قيام حجتهم . هؤلاء الاغبياء ليس لهم علم عن دليل . واين يكون لهم علم عن دليل والدليل قائم على خلاف مذاهبهم ؟ قائم من الخلق ومن الآفاق والانفس ، وليس لهم علم من هدى عن نبى معصوم تلقوا عنه ما هم عليه ، واين يكون الهدى والمعصوم يخبر بغير آرائهم ويسفه احلامهم ؟ وليس لهم علم من كتاب يستندون اليه ، واين يكون الكتاب الذى يستندون اليه ، وجميع الكتب السماوية تقرر التوحيد وتقرر البعث ، وهذه الامور الثلاثة ، وهى العلم والهدى والكتاب المنير ، هى طرق العلم الصحيحة عند العقلاء ؟ ! فهم لا يستندون الى شيء مما يليق بالعاقل ان يستند اليه ، انما يستندون الى جهالات وضلالات تلقوها تقليدا عن آبائهم ، حتى انه اذا قيل لهم

اتبعوا ما انزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا !

مثل هذه الطائفة عميت منها البصائر ، وضلت السبيل السوى ، وحادت عن منهج الحق وعن مسالك العقلاء ، فطريقهم طريق الشيطان يوسوس لهم ويزين لهم فيتبعون دعوته ، والشيطان يدعو الى عذاب النار لأنه يدعو الى الشرك والضلال وهما هاديان الى النار

لكن الله سبحانه يدعو الى الجنة والى صراط مستقيم ، فالله أحق بالاتباع ، والشيطان أحق بالاعراض ، ولذلك أنكر الله سبحانه عليهم قولهم ، فقال : « أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » !

وقرأ بعض القراء « واسبغ عليكم نعمه » على صيغة الجمع ، وبعضهم «واسبغ عليكم نعمته» على صيغة الواحد ، والمعنى لا يختلف ، وصيغة المفرد تستعمل فى المفرد وفى الجمع ، كما ان صيغة الجمع تتناول الواحد ، وقد قال الله سبحانه : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . ومن المعلوم انه لم يرد نعمة واحدة . وقال فى آية أخرى : « شاكرا لأنعمه أجتباه وهداه »

ذم الله سبحانه فى هذه الآية المجادلين عن غير علم ، وذم التقليد وعدم الاهتداء بالعلم الناشىء عن الدليل ، او بالهدى عن المعصوم ، او بكتاب منير

وقد جاءت فى القرآن آيات كثيرة فى هذا المعنى تذم التقليد وتعيب المقلدين : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ؟ ! « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » ؟ ! فالذى تقضى به آيات الكتاب الكريم انه لا يجوز الاستناد الى التقليد فى أصول العقائد ، وان ايمان المقلد ايمان لا يعبأ الله

به ، وهو ايمان لا عمل لصاحبه فيه ، وكيف ينجو مؤمن من غير عمل ؟ واذا جاز للمقلد النجاة بالتقليد لمجرد المصادفة وانه اتبع والدا او شيخا كان مؤمنا ، فلم يعذب الله من كان كفره بالتقليد ومجرد المصادفة لأن اباه كان كافرا ، وكلاهما لا عمل له يعتد به ؟ ان الكافر المقلد لم يذم الا لأنه لم يتبع طرق العلم الصحيحة ، والمؤمن المقلد لم يتبع طرق العلم الصحيحة ، لأنه وان اتبع الرسول فهو لم يتبعه بعد ان قام الدليل عنده على صدقه بل اتبعه تقليدا ، ولو انه اتبع الرسول بعد ان قام الدليل عنده على صدقه لكان ناجيا لا شك ، لأنه بعد قيام الدليل يكون قول المعصوم هديا يصح الاستناد عليه ، ويكون كتابه هديا يصح الاستناد اليه

ولذلك قال الامام الرازى واكثر العلماء : « ان التقليد لا يكفى فى اصول العقائد ، ويجب النظر فى الأدلة على كل واحد » ونقل الخفاجى انه لا خلاف فى امتناع تقليد من لم يعلم انه مستند الى دليل حق ، والاعتراف بالخالق لا يحتاج الى عناء فى النظر ، ويكفى فيه رفع الغشاوة عن البصر . وقد نصب الله الأدلة واوضح الحجة فى الآفاق والأنفس . وليس الغرض من الأدلة الأدلة الجارية على قواعد المنطق فى الأقيسة ومقدماتها واشكالها وضروبها ، بل يكفى ما قاله الأعرابى : « البعرة تدل على البعير ، واثر الأقدام يدل على المسير ، ارض ذات فجاج ، وسماء ذات ابراج ، افلا تدل على اللطيف الخبير »

ومما تحسن الاشارة اليه ما روى عن احمد رضى الله عنه فى شخص أخبره فقيهان برايين مختلفين ، قال : « لا يجوز له العمل بأيهما شاء ، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن اليه قلبه » فقد جعل اطمئنان القلب قائما مقام الدليل فى احكام الفقه ، فهو لم يرض بالتقليد حتى فى الفروع الفقهية

كل هـذا للخروج عن الذم الذى وجهـه الله تعالى الى المقلدين

وقد وصف الله سبحانه الكتاب بالمنير ، والمراد به الواضح الذى لا خفاء فيه ولا لبس ، لينبه الى انه لا يجوز التمسك فى العقائد بالآيات التى فيها خفاء ، والتى هى محل تأويل ، فان التمسك بمثل هذه الآيات قد اضل كثيرا من الناس ، وتعلق كل صاحب مذهب فى الاستدلال على رايه بأحـد الوجوه ، فتعددت المذاهب والفرق ، وكل واحد يدعى أن الكتاب ناصره ، وانه مع الحق لم يفارقه

* « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ، وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » :

العروة من الحبل : هى الناحية من نواحيه . **والوثقى :** المتينة . **والوجه :** الذات . **والتسليم :** التفويض

والمعنى أن من يسلم ذاته الى الله سبحانه ويفوض اليـه امره ويحسن فى عمله : يطيع أوامر الله ويحذر منهياته ، ويسير فى الأسباب التى سنها الله فى الـكون وربط بهـا مسبباتها ، مراقبا فى ذلك وجه الله ، فهـذا شخص تعلق باقوى طرف من اطراف حبـل النجـاة ، فلا ينقطع به

الجبل ، ولا يتردى فى الهاوية . وهذا مثل ضربه الله سبحانه للمحسن المفوض ، فجعل حاله كحال الشخص الذى اراد ان ينزل من شاهق الجبل فتمسك باقوى اطرافه ، فهو بمأمن من السقوط وانقطاع الحبل الى ان يصل الى الارض سليما . وهذا الذى أسلم وجهه الى الله وهو محسن سينال فى الآخرة جزاءه على ما قدم من خير ، فان مرد الأمور جميعها الى الله سبحانه ، وهو يجازى على الذرة من الخير كما يجازى على الذرة من الشر : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

اما الكافر فلا يحزنك أيها النبي كفره ، ولا يهمنك أمره ، ان مرجعه الى الله ، وهو العليم بذات الصدور ، وبما تنطوى عليه كل نفس ، وسيخبره بما قدم من شر ، وسيجازيه عليه ، ويرده مقهورا الى العذاب الغليظ الثقيل . ومتعة الكافر فى الدنيا متعة قليلة ، لأن أجل الانسان فى هذه الحياة قصير مهما طال ، فهو وان متع فى هذه الحياة فسيكون امره فى الحياة الآخرة غير أمره فى الحياة الدنيا ، انه سيقع فى العذاب الغليظ فى أمد طويل لا نهاية له

ولهذه الآية نظائر كثيرة جدا فى القرآن :

« فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انا عليكم بوكيل » ، « ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها » ، « ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غنى حميد »

والغرض منها جميعها تقرير قاعدة واحدة : هى ان كل شيء يعمله الانسان ففائدته تعود عليه ، فان عمل خيرا لقى جزاءه من الخير ، وان عمل شرا لقى جزاءه من الشر ، فلا كفر الكافر يضر الله ورسوله ، ولا ايمان المؤمن يعود على الله ورسوله . والتكاليف جميعها لم يقصد بها الا مصلحة العباد .

وقد سلى الله سبحانه رسوله بقوله : « فلا يحزنك كفره » لينصرف بهمه كله الى الدعوة وتبليغ الرسالة وسياسة الخلق ، والامام الاكبر يجب أن يوفر له الصفو ، ويباعد عنه الحزن المقلق المثير للهم والصارف عن الخير ، وللبشرية احكامها التي تراقب وتعالج ، ومن الذى يعالج الانبياء ويراقب خطرات نفوسهم ويثبتهم الا الله الحكيم الذى بعثهم وأيدهم ، فهو يرعاهم ويحوطهم ؟ « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

وقد كان صلى الله عليه وسلم يالم أشد الألم لضلال قومه ، ويدل لذلك قول الله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا »

ومعنى قوله سبحانه : « **نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ** » ان الكافر لا يعلم ان كفره ينتهى به الى عذاب النار ، فهو لم يكن مريدا لعذاب النار ومختارا له ، لكنه اراد الكفر ، ومرد الكافر الى النار ، فهو مسوق اليها رغم انفه ، وملجأ اليها اضطرارا . وللأعمال البشرية غايات وآثار تنتهى اليها بحسب السنن ونظام الأسباب والمسببات ، كما يفضى الاسراف فى الشهوات والراحة المفرطة والتعب المضنى الى بعض الأمراض ، واعمال الفساق واعمال الكفار تفضى الى النار كما يفضى الاسراف فى الشهوات الى المرض ، فهى من الأسباب التى ربطت بها مسبباتها حسب الناموس الالهى والنظام العادل الذى سنه العليم الحكيم

* « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . لِلَّهِ مَا فِي

السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » :

هذا رجوع الى الاستدلال بالخلق والنعم على تفرد الله سبحانه بالعبادة ، لكن الاستدلال هنا باقرار الجاحدين انفسهم ، فالله سبحانه يقول لنبيه : انك ان سالت المشركين الذين يجعلون مع الله الها آخر ويجعلون له اندادا وشركاء فى العبادة : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن الله ، لا يستطيعون انكارا ، لوضوح الدلائل عليه ، وقيام الحجة ، وتأييد الفطرة ، وهذا الاعتراف يوجب الاعتراف باستحقاق الله وحده للعبادة ، ويوجب نقض مذاهبهم ومعتقداتهم ، فاحمد الله سبحانه على ان الحجة لزمتهم باقرارهم كما لزمتهم بالأدلة الماثلة ، لكن هؤلاء جهلاء أغبياء لا يعرفون طرق الاستدلال ولا يعرفون التلازم بين التفرد فى الخلق والتفرد فى العبادة ، وهذه الجهالة هى التى ورطتهم فيما هم عليه ، وهذا هو معنى قوله سبحانه : « بل اكثرهم لا يعلمون » . والاعتراف بالتفرد بخلق السموات والارض اعتراف بانه المالك لما فيهما ، المتصرف فيه ، فهو مالك جميع المنافع التى تعود على الخلق ، وهو الذى أحسن اليهم بها على سبيل الفضل والمنة منه ، ان الله هو الغنى عن كل شىء سواه ، وهو الحميد المستحق للحمد فى ذاته ، حمده الناس أم لم يحمدوه . والمتتبع لآى القرآن الكريم فى دحض الشرك واقامة الأدلة على الوحدة ، يرى انه موضوع اطيل الحديث فيه واعيد وكرر ، لأنه أهم موضوع تبنى عليه الشرائع وتقوم على أسسه قواعد الاصلاح ، وللتكرار فعل فى النفوس لا ينكر أثره ، وبخاصة اذا كان من نوع أساليب القرآن القوية الجذابة التى تفعل فى النفوس ما لا يفعل السحر

* « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » :

المعنى : ولو ان اشجار الأرض كلها بريت أقلاما ، وجعل البحر كله مدادا لهذه الأقلام ، ثم مد هـذا البحر بسبعة ابحر مثله ، وكتبت كلمات الله سبحانه بهذه الأقلام وهـذا المداد ، لتكسرت الاقلام وفنى المداد قبل أن تنفد كلمات الله ، فانه العزيز القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء ، والذى لا نهاية لمقدوراته ، الحكيم الذى لا يخرج شىء عن علمه وحكمته ، ولا نهاية لعلمه كما لا نهاية لمقدوراته

وأكثر المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا الألفاظ التى يعبر بها عما فى علمه وقدرته ، ولهم فى أسباب النزول روايات مختلفة لا يعنينا ذكرها،فان الآية متسقة مع الآيات قبلها ، ولا يتوقف تفسير معناها على بيان أسباب النزول. وبعض المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا عجائب صنع الله وعجائب قدرته ، وأطلق عليها اسم الكلمات مجازا ، من اطلاق اسم السبب على المسبب ، فان قول الله : كن ، وهى كلمة ، سبب فى ايجاد الأشياء ، وفى بروز عجائب الصنع الى الوجود ، وهذا كما يقول الشجاع لمن يبارزه : أنا موتك، وكما يقال للمريض : هذا شفاؤك وهم يشيرون الى الدواء، والشجاع ليس هو الموت لكنه سببه ، والدواء ليس هو الشفاء لكنه سببه

وقد نقل مثل هذا عن بعض السلف،فقد روى عن قتادة انه قال : لنفد البحر قبل أن تنفد عجائب ربى وحكمته

وخلقه . وكلا المعنيين صحيح ، والمآل واحد على كلا الرأيين، فان الله سبحانه بعد أن بين أنه خالق السموات والارض وأنه مالك كل شيء فيهما ، أراد أن يبين أن قدرته لا تقف عند هذا الحد من خلق السموات والارض وما فيهما ، وأنه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له ، ومما اذا أريد أن يكتب لفنيت الاقلام والبحار قبل أن يكتب ، ولا شك أن الذى يكتب هو الكلمات التى تدل عليه ، فيصح أن يراد عجائب الصنع ، والذى يكتب هو الكلمات ، ويصح أن تراد الكلمات من أول الأمر

وهذا التفسير لوحظ فيه أن الكلمات التى لا تنفد هى المقدورات التى لا نهاية لها مما هو خارج عن السموات والأرض ، والأولى أن يراد بالكلمات التى لا تنفد ، عجائب الصنع فى السموات والأرض، فان ما فيها من دقة الوضع وحسن التأليف والنظم، ومن الأسرار الباهرة فى كل جزء مما حوته السموات والأرض، وفى كل نوع من الحيوان والنبات، فى ذلك من الأسرار والجمال ما لو فهم وأريد أن يكتب لما استطاع أحد أن يكتبه ، لأنه لا توجد له أقلام ولا يوجد له مداد يفى به ، وكأن الله سبحانه يقول : ان عجائب صنعى فى هذه السموات التى تعرفونها وهذه الارض التى تعرفونها لا تنتهى عند حد ، ولا يستطاع كتابتها مع أنها فى شيء محدود متناه . وفى هذا من عظمة الخلق وعجائب الصنع ما يرجح الرأى الذى أشرت اليه . وقد ظهر من هذا أن الآية متسقة مع الآيات قبلها ، لأنها كلها فى بيان التفرد بالخلق وعظمة الخالق وعظم المخلوق ، وبدائع هذا الخلق وعجائب الصنع فيه

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »

وكلمة « **يمده** » فى قوله « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر » مأخوذة من قولهم : مد الدواة وأمدها ، فكأنه جعل البحر دواة وجعل الأبحر السبعة مدادا

وقوله « **سبعة أبحر** » لا يراد بها العـــدد المخصوص بل يراد بها الكثرة • ونظير ذلك قوله عليه السلام : « المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »•ومن الواضح أنه ليس للكافر سبعة أمعاء بل المراد قلة الأكل وكثرته

ومثل هذا يمكن أن يقال فى أبواب النار • أما الابواب الثمانية للجنة فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النـــار لراحة أهلها وزيادة العناية بهم • وكذلك يقال فى السموات السبع والأرضين السبع ، والعرب تذكر السبعة للكثرة ، وتذكر الســـبعين للكثرة كذلك ، ومنه : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » • ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم فى السبعين ولا فى الســـبعة الآلاف • ونظيره : « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » • يراد فى سلسلة طويلةهائلة ، ولا يراد التقدير بهذا العدد

وقوله تعالى : « **ان الله عزيز حكيم** » ظاهر المناسبة جدا عند حمل الكلمات على عجائب الصنع وعلى المقدورات التى لا نهاية لها ، وهو ظاهر المناسبة أيضا على ارادة الألفاظ التى يعبر بها عنالمقدورات وعجائب الصنع باعتبار مدلول الكلمات

* « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » :

هذه نتيجة من نتائج الآيات السابقة ، فقد كان الحديث عن عظمة قدرة الله وسعة علم الله ، فهذه القدرة الباهرة الغالبة التى لا يعجزها شىء ولا يشغلها شىء عن شىء ، تخلق العالم كله بجميع ما فيه من أنواع كما تخلق نفسا واحدة ، وتبعث الناس كلهم كما تبعث نفسا واحدة ، وهذه النتيجة التى جعلت تابعة لمقدماتها مما أنكره المشركون ، فقد كذبوا بالبعث كما عددوا الآلهة ، قالوا : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون • لقد وعدنا نحن وآباؤنا هـذا من قبل ، ان هذا الا أساطير الأولين » ، « وضرب لنا مثلاونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم • قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم • الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون • أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

بعد هـذا كله أنذر الله سبحانه عباده بقوله : « **ان الله سميع بصير** » • فهو سـميع بما يقوله المشركون من شرك وتكذيب وانكار للبعث ، الى غير ذلك من أنواع الضـلال ، وهو بصير بأعمالهم وسيجازيهم عليها « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله »

وقريب منه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى الى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » :

اذا تساوى الليل والنهار فى الطول ثم أخذ الليــل فى الزيادة ، مال النهار الى القصر ، وبذلك يأخذ الليل من وقت النهار ويدخل فيه ، واذا تساويا وأخذ النهار فى الزيادة ، مال الليل الى القصر ، وبذلك يأخذ النهار من وقت الليــل ويدخل فيه ، فالزائد يدخل فى زمن الناقص ، وهذا معنى ولوج الليل فى النهار ، وولوج النهار فى الليل • ويتعلق بهذا الموضوع كلام طويل مشروح فى علم آخر يبين درجات الطول والعرض ، واختلاف الايام والليـالى ، وأقصر الايام وأطولها فى الأقطار المختلفة،وتفسير الآية لا يتوقف عليه• وقد فرغت قبل ذلك فى الدرس السابق من تفسيرالتسخير وبيان أنواعه • والشمس تجرى الى أجل مسمى مقدر عند الله تعالى لا تتجاوزه ، قد يكون يوم‌القيامة ، وقد يكون قبل ذلك ، وكذلك القمر ، فهما يجريان الى أن يبلغ كل أجـله وينتهى اليه

تعاقب الليــل والنهار ، واختلافهما بالزيادة والنقص ، على تقدير وحســاب مطرد ، وجرى الشـمس والقمر فى مداريهما على حساب وتقدير ، من الأدلة عـلى قدرة الخالق وعظمته

وقد أوجد تلك النواميس‌الدقيقة ، وقدرها ذلك‌التقدير البديع لمنفعة العباد ومصالحهم،فاختلاف‌الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها فى‌البروج الشمالية والجنوبية ، هوالسبب فى اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار المتباينـة ، وفى هبوب الرياح وتســاقط الأمطار تبعا لنـاموس الحرارة والبرودة،وكل ذلك سبب فى‌بقاء مملكتى النبات والحيوان• والرياح كما تسير السحاب ، تسير السفن ، والســحب لا تعدو طرقها المرسومة لها طبقا للنواميس • ومضمون‌هذه الآية داخــل فى عموم قوله سبحانه : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض » ، فان دخـول

الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل،وتسخيرالشمس والقمر ، كل ذلك داخل فى قوله : « ما فى السموات وما فى الارض » ، كما أن مضمون قوله سبحانه : « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله » داخل فى ذلك

لكن الله سبحانه أراد أن يفصـــل نعمه ، وأن يدل على عظيم قدرته بآياته البينات ، لينبه الغافلين من عبـــاده ، ويزيد ايمان المؤمنين • وقد جمع الله سبحانه فى آية واحدة من آيات سورة البقرة جملة من النعم ودلائل القدرة ،فصل بعضها عن بعض فى هذه الســـورة ، وفرقت فى آياتها : تلك الآية قـوله : « ان فى خلق الســموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس،وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيهـــا من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون»

هذه الآية مرتبة ترتيبا بديعا ، ارتبطت فيه الكائنات جميعهـا علويها وسفليها حسب ما هى مرتبطة فى الواقع ونفس الأمر • بدأ بالسموات والارض لأنها أصل الخلق ولها دخل فى اختلاف الليل والنهار ، واختلاف الليل والنهار يدعو الى اختلاف درجات الحرارة والبرودة ، وذلك يدعو الى هبوب الرياح والى تكوين السحاب ، والرياح تسير السحاب فيتساقط المطر تبعا لناموس الحرارة والبرودة ، والله يحيى الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء ، فيتكون النبات المختلف الألوان ، وفى نماء النبات بقاء الحيوان

فاتحاد الماء النـــازل من السماء بالعناصر الأرضية هو السبب فى مملكتى النبات والحيوان ، فقد عملت السموات والارض جميعها فى هذه الانواع التى تعيش على الارض ، والتى سخرت جميعها للانسان • ومملكة النبات والحيوان

ترجع الى عناصر واحدة فى الارض لا خلاف فى أصلها ، وانما الخلاف فى طريق تركيبها من الذرات

والارض فى الأصل جزء من الشمس ، والشمس جزء من السديم ، وكل شىء فى الارض أصله السديم ، وهو واحد ، وخالقه واحد ، ولذلك جاءت آية البقرة عقب قوله سبحانه : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم»

والخطاب فى قوله تعالى : « **الم تر** » موجه الى أى شخص يصح أن يتوجه اليه الخطاب · ومعنى « ألم تر » ألم تعلم · والواقع أن ذلك من حقه أن يعلمه كل واحد من المخاطبين ، لقيام الأدلة ووضوح الدلالة عليه

وقوله تعالى : « **وأن الله بما تعملون خبير** » معطوف على ما قبله ، فهو داخل فيما تعلق به علم المخاطبين ، لأن الذى أوجد هذا النظام البديع ، ونسق العالم هذا التنسيق الدقيق ، وأوجد فيه هذه النواميس التى وحدته ، لا شك أنه عالم بكل دقيقة فيه والذى يعلم كل دقيقة فى العالم ، يعلم بلا شبهة ما يعلمه الناس فى هذه الحياة ، وسيجازيهم عليه فى الحياة الاخرى ، وهذا كله من حقه أن يتعلق به علم المخاطبين

* « ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ » :

الاشارة فى قوله سبحانه : « **ذلك** » الى كل ما سبق فى السورة ، من خلق السموات بغير عمد ، والقاء الجبال فى الارض خشية أن تميد ، وانزال الماء من السماء ، وبث الدواب فى الارض ، وانبات أزواج النبات ، وشمول قدرة

الله وعلمه لكل شيء ، وتسخير الشمس والقمر وكل ما فى السموات والارض ، واسباغ النعم ظاهرة وباطنة ، وقدرته على البعث ، واختلاف الليـل والنهار ، كل ذلك سببه أن الله هو الحق الثابت فى نفسه الذى لا يزول ، المستغنى عن كل شيء بنفسه ، والذى يفتقر كل شيء اليه ، فوجوده هو الوجود الواجب ، وكل ما عداه فهو باطل زائل ، لأنك اذا نظرت اليه غير مرتبط بالخالق ، وجدته عدما لا يلبس ثوب الموجود ولا يشرق عليه الوجـــود • واذا كان كل ما عداه باطلا ، فالآلهة التى عبدوها من دون الله من ذلك الباطل • فهو العلى المتعالى بذاته وبصفاته عن كل مخلوق،وهو الكبير العظيم الشأن ، يجل عن أن يكون له شريك ، فلا شيء يدنو من عظمته : « ليس كمثله شيء وهو الســميع البصير » ، « كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون »

وقد اشتملت الآيات السابقة على صفات الكمال جميعها من صفات ثبوتية ، وصفات ســلبية • وقد قسم العلماء الموجــودات الى أربعة أقسام : ناقص ، ومكتف ، وتام ، وفوق التمام • فالناقص هو الفاقد ما ينبـغى أن يكون له كالمريض والأعمى ، والمكتفى هو الذى أعطى ما يدفـع به حاجته عند نزولها كالانسان والحيوان : أعطيا من الوسائل ما يدفع حاجتهما عند نزولها ، لكن هذه الوسائل عرضـة للزوال،والتام ما أعطى كل ما جاز له وان لم يحتج اليـه كالملائكة المقربين : أعطوا من الدرجات ما لا يزيد ولا ينقص، والذى فوق التمام هو الذى ثبت له كل ما هو جائز له وأمد غيره بما هو محتاج اليه ، فهو الغنى عن كل ما عداه،العظيم فى نفسه ، فقوله سبحانه : « هو العلى الكبير » لا ينطبق الا على القسم الأخير الذى هو فوق التمام

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » :

البحر نعمة من النعم ، وجريان الفلك فيه ، وهى السفن تحمل ما تخرجه الارض من بلد الى بلد ، نعمة أيضا من النعم ، وآية على قدرة الله سبحانه ، لانها تسير بالنواميس التى أودعها فى خلقه تحمل نبات الغرب ومنتجاته الى الشرق ، وتحمل خيرات الشرق منه الى الغرب ، تمخر فى البحار من قطر الى قطر ، ومن بلد الى بلد ، وتربط العالم بعضه ببعض كأنه بلد واحد ثمراته مشتركة،وتنقل الناس من جهة الى جهة للعلم والمعرفة والدرس والعظة والاعتبار. فقوله : « **بنعمة الله** » معناه : تجرى حاملة نعمة الله . يدل على ذلك قوله تعالى : « والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس »

والاشارة فى قوله سبحانه : « **ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** » عائدة الى جميع ما ذكره الله فى السورة فى الآيات السابقة من خلق السموات والارض ، الى غير ذلك مما فصلناه قبل تفسير هذه الآية

ذلك كله آيات بينات ، ودلائل واضحات على عظمة الله سبحانه وقدرته وتفرده بالعبادة ، لكنها ليست دلائل توصل الى ما تدل عليه الا لشخص صبار على البلاء لا تفتنه النقمة عن ادراك الحق والتوجه الى الخالق ، شكور لله على نعمه لا تلهيه النعمة عن التوجه الى المنعم

* « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » :

الختار : شديد الغدر . **والكفور** : شديد الكفر بالنعمة

أخبر الله نبيه فى آية سبقت أنه اذا سأل المشركين عن خالق السموات والارض ، اعترفوا بأنه الله ، وبين فى هذه الآية أنهم يعترفون بذلك أيضا اذا نزلت بهم النوازل ولم يكن لديهم سبيل الى صرفها ، فانهم اذا كانوا فى البحر وأدركهم الموج العالى كالجبال يتدافع بعضه خلف بعض ويركب بعضه بعضا ، وخافوا الهلاك ، وظنوا أنه لا ملجأ الا الى الله ، دعوا الله فى هذه الحالة ، مخلصين له الدين ، مفوضين مسلمين ، لا يتوجهون الى أحد غيره ، ولا يعترفون بدين غير دينه ، لكن الانسان ظالم ، صوره الله أحسن تصوير فى قوله : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ، ومع هذا الظلم قد يدرك النعمة ويقدرها ، وتتحرك فيه داعية الخير ويقهره الدليل ، فينسيه التعصب للآباء ، ولذلك فان الله اذا نجى من فى البحر ممن أدركهم الغرق ، انقسموا الى قسمين : قسم اقتصد أى اتبع القصد ، وهو الطريق المستقيم ، طريق الله سبحانه وطريق الحق ، فوحد الله ، واعترف بنعمه ، واستمر على شكره ، وقسم مر كأن لم يدعه الى ضر مسه ، فكفر بنعمته ، وغدر أشد الغدر بعهده

وقوله : « **ختار** » مقابل لقوله : « صبار » لأن شديد الغدر لا يصبر على العهد ، وعلى الاقرار بالنعمة • وقوله : « **كفور** » مقابل لقوله : « شكور »

* « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » :

قرىء : يجزى بفتح الياء من جزى بمعنى قضى • وقرىء يجزى بضم الياء من أجزأ • يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان أى أغنيت عنك غناءه • **والغرور** كل ما يغر الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان ونفس أمارة بالسوء • وقوله : «**ولا مولود هو جاز** » كلمة مولود مبتدأ ، وجملة « هو جاز » خبر عنه

كانت أكثر آيات السورة مشتملة على دلائل التوحيد ، والقدرة ، والعلم ، واستحقاق العبادة ، ونفى الشريك فى الخلق ، والشريك فى استحقاق العبادة والاستعانة ، وذكر فيها البعث فى قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة »

وبعد هذا شرع الله سبحانه يعظ عباده ويخوفهم يوم البعث ، ويحذرهم نفسه بهذه الآيات ، ومعناها : أيها الناس : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية من عذابه ، فوحدوه وأطيعوه ، واحذروا ذلك اليوم الذى لا يقضى فيه ولد عن والده شيئا ، ولا يغنى فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده

ذلك اليوم هو يوم البعث ، ويوم الدين ، ويوم الفصل، ويوم الحكم بين العباد ، وهو اليوم الذى لا تنفع فيه شفاعة الشافعين : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . ولا تنفع فيه الوسائل ، الا وسيلة من عمل صالح قدمه المرء فى دنياه ، وأسلفه لآخرته، فان الأمر هناك بيد العزيز الذى لا يغالب، والقاهر الذى لا يمانع . واذا كان ذلك اليوم لا يقضى فيه والد عن ولده شيئا وهو أحب الناس اليه ، ولا يقضى فيه ولد عن والده شيئا وهو أحب الناس اليه ، فغيرهما أولى ألا يقضى وألا يحتمل

وقد قيل فى جانب الوالد : « لا يجزى والد عن ولده » ، وقيل فى جانب الولد : «ولا مولود هو جاز عن والده شيئا»، والجملة الثانية آكد فى النفى من الجملة الأولى . فعل ذلك لسببين : الأول أن علية المؤمنين اذ ذاك قبض آباؤهم على الكفر وعلى دين الجاهلية، فأراد الله حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئا

والسبب الثانى : أن الله سبحانه قرن شكر الآباء بشكره ، وأوجب على الولد كفاية والده جهد استطاعته ، ونفى السوء عنه ، وقد يكون فى ذلك ما يطمع الآباء فى نفع الأبناء واحتمالهم أهوال القيامة عنهم ، وذلك جدير بأن ينفى على وجه التأكيد لازالة هذه الأوهام

« **ان وعد الله حق** » : المراد بالوعد هنا ما يشمل الوعيد، فوعد الله بالبعث فى اليوم الآخر حق ، ووعده بالثواب حق ، ووعيده بعذاب النار حق ، كل ذلك ثابت لا يتخلف منه شىء ، والله صادق الوعد ، وصادق الوعيد

« **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور** » :

لا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذاتها فتميلوا اليها وتدعوا الاستعداد لما فيه النجاة والخلاص من عقاب الله ،ولا يخدعنكم بالله خادع من الانس أو الجن أو وسوسة النفس الأمارة بالسوء

ومعنى لا يخدعنكم بالله : لا يخدعنكم الخادع بذكر شأن من شؤونه التي تسهل المعصية ، من العفو والمغفرة وسعة الرحمة

والناس قسمان : قسم تخدعه الدنيا من غير أن يزينها له أحد ، وقسم يزين له الدنيا أحد الخادعين ويمنيه بعفو الله ورحمته ، فيقول له : تمتع بها وباب التوبة مفتوح ، ورحمة الله واسعة ، وهناك شفاعة العلماء والاولياء،وشفاعة الأجداد ، وبذلك تجمع لذات الدنيا ولذات الآخرة . فنهى الله سبحانه عباده من أن تخدعهم الدنيا نفسها ، وعن أن يخدعهم الخادعون

* « إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ . وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ . وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً . وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » :

يوم الساعة يأتى بغتة لا يعلمه أحد من الخلق،والله وحده هو العليم به ، فليحذر الناس أن يأتى ذلك اليوم وهم مقيمون على الضلال ، فيصيروا من عذاب الله وعقابه الى ما لا قبل لهم به ، والله وحده هو الذى ينزل الغيث ، فهو الحقيق بالحمد ، والخليق بالعبادة والشكر ، والله هو الذى يعلم ما فى أرحام الاناث،ويعلم خواص ما فيها واستعدادها

للخير والشر والعلم والجهل وغير ذلك من الصفات والاخلاق، ثم يصورها كيف شاء ، فهو المنعم بالاولاد من بنين وبنات، ولا تعلم نفس حي ماذا تكسب في غدها وماذا تعمل ، ولا تدرى نفس حي بأى أرض تموت ، والله هو الذى يعلم ذلك، فانه العليم بكل شيء ، والخبير بكل شيء ، ما ظهر من الاشياء وما بطن ، فليتوجه الناس اليه بطلب العون على عمل الطاعات وفعل الخيرات ، فهو الملهم للصواب ، وهو الموفق لطريق الحق

وعلى هذا التفسير فالآية متممة للوعظ في الآية السابقة

وقد أخرج ابن المنذر عن عكرمة : أن رجلا يقال له الوارث بن عمرو ، جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد : متى تقوم الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمت اليوم ما كسبت فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية . ونقل مثله البغوى والواقدى

فاذا صح هذا فالآية جواب عن سؤال حصل فعلا ، وبذلك يعلم سر الاقتصار على هذه الخمسة ، اذ من المعلوم أن الله سبحانه اختص بأشياء أخرى أكثر من هذه الخمسة، فهو المختص بالغيب كله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » . وهو العليم بأسرار الخلق وبدء الخلق ، وهو العليم بالبعث كيف يكون ، وبكل ما في الدار الآخرة، وكل ذلك مما اختص الله سبحانه به ولا يعلمه أحد الا باعلام الله سبحانه اياه

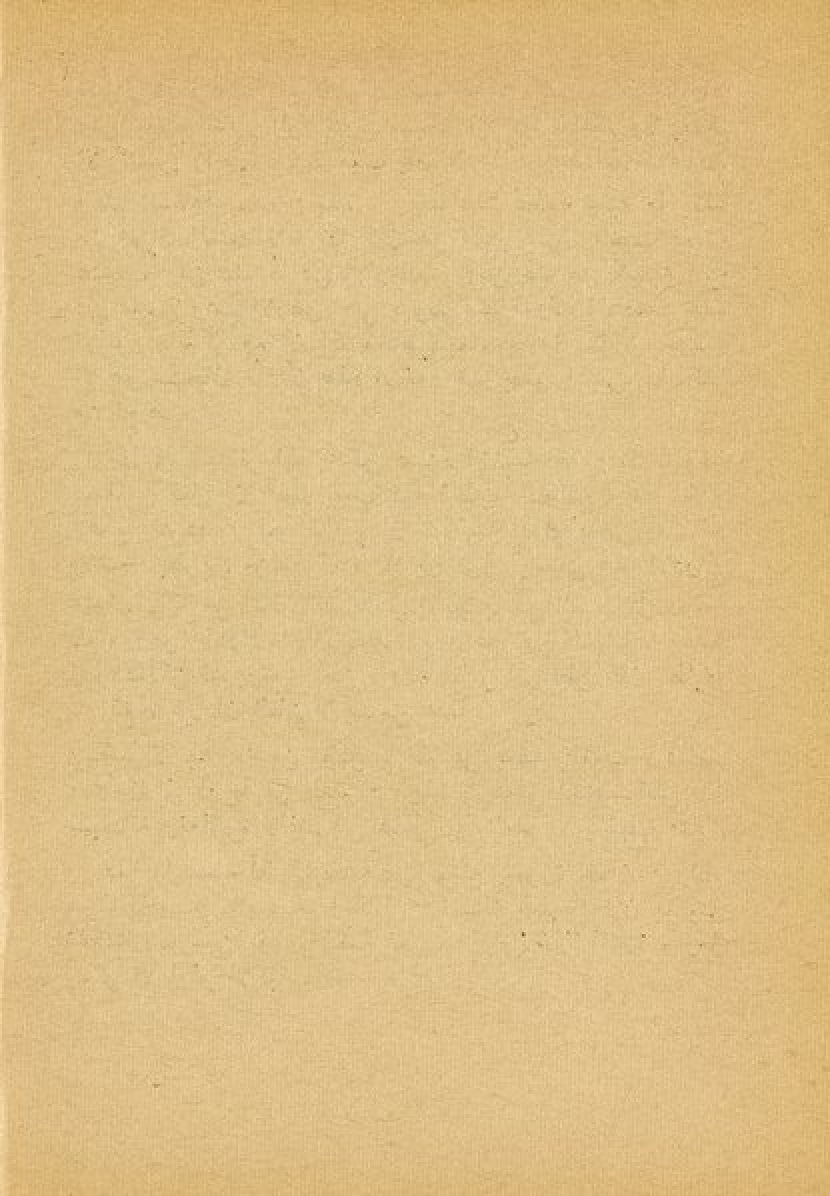
أما اذا صرف النظر عن هذه الرواية وعن سبب النزول فتفسر على النحو الذى أسلفناه ، ويمكن أن تكون جوابا عن

سؤال مقدر نشأ عن الآيات السابقة ، وكأن سائلا سأل : متى البعث المشار اليه بقوله سبحانه : «ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » ؟ فأجيب بأن علم ذلك عند الله سبحانه، وعلم الساعة عنده وحده ، وبعد هذا عطف عليه ما بعده من انزال الغيث لانه اذا كان هو الذى ينزل الغيث فعلمه عنده ، ومن علم ما فى الأرحام ، ومن علم ما يكسبه المرء في غده ، وعلم الارض التى يموت فيها • وقد اختصت هذه الأمور بالذكر مع أن الله مختص بعلم غيرها مما لا يحصيه الا هو سبحانه ، لأن هذه الأمور مما يهتم الناس بها أكثر من غيرها

والذى استأثر الله به فى هذه الاشياء هو العلم ، وقد بينا من قبل أن العلم يجب فيه المطابقة للواقع ، مع الجزم وعدم التردد • فلو فرض أن شخصا أدرك بعض هذه الاشياء بطريق من الطرق ، فلا يجوز أن يسمى هذا الادراك علما ، لأنه من المحال أن يصل الانسان فى الغيب الى درجة العلم وهو الادراك المطابق للواقع ، مع نفى الشك ، وعدم التردد، لكن قد يوجد الظن ، وقد يظهر ان الظن كان مطابقا للواقع ، غير أن الظن لا يسمى علما

أما الأنبياء الذين يظهرهم الله على بعض الغيب ، فانهم يصلون الى درجة من العلم • وهذا لا ينافى اختصاص الله سبحانه وتعالى ، لأنهم لم يصلوا الى العلم الا بسبب منه

هذا ما يسره الله سبحانه من تفسير سورة لقمان • والله هو القادر على الهام الحكمة • نسأله سبحانه أن يؤتينا الحكمة ، « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولو الألباب »



سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ . إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » :

تقدموا : يصح ان يكون من تقدم المتعدى ، او من قدم بمعنى تقدم . وعلى الثانى يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه ـ كما قال الراغب ـ لا تسبقوه بالقول والحكم ، بل افعلوا ما يرسمه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق ابداء الرأى والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير ان العرب تقول : فلان يقدم بين يدى امامه ، على معنى يعجل بالأمر والنهى دونه . وعلى الاول اما ان يلاحظ تعديه الى مفعول محذوف لقصد التعميم . ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئا ما بين يدى الله ورسوله ، قولا او فعلا ، واما ان ينزل منزلة اللازم ، ومعناه لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور الى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحيى ويميت »

ومآل المعنى على الوجوه كلها : النهى عن الاقدام على امر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب »

ومعنى **« بين يدى الله »** : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هوالأمام. وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى ينظر اليه من غير تقليب حدقة . وذكر الرسول ، باعتباره أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشريعة ، والمدافع عنها

« واتقوا الله » : اى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بينها

والسميع : اذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريه المجازاة بها . وكل موضع اثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نفاه عن الكافرين أو حث عليه ، فالقصد به الى تصور المعنى والتفكر فيه والاعتبار به ، نحو « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (١) » ، « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (٢) » ، « ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون (٣) » ، « ولهم آذان لا يسمعون بها (٤) » . والله يعلم المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى عليه خافية

وهذه الآية تقرر أصلا عظيما من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لا معقب لحكمه ، وهو احكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصل أتم تقرير قوله تعالى : « فلا وربك

---

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاعراف : ١٧٩

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (١) » وقوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم (٢) » ، وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا (٣) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة لله ، وذكر باعتبار أنه مبلغ ومبين . اما اولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه فى الحوادث ، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ، فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون اسراره ، ويفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم احاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسنة تطبيقا صحيحا ، ومن الاجتهاد لاستنباط الاحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة الكتاب والسنة ، وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة واستثمر العلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الاسلامية كاملة فى زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة فى الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ، لكن الأحداث غيرت مجرى الامور ، وحب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ، وكان اصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال انهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتعسف الناس فى التأويل ، وجدت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة ، ويتجافى عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ، تعصب لها

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٣) النساء : ٥٩

اصحابها على علم بضلالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم او جهل وحسن نيـــة ، فتفرق المسلمون فرقا واحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتجيز قتالها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا فى صدر الاسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة

جرت الامور على هذا النحو ، فضعف شأن المسلمين ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، واحبوا الحياة ، وتحللوا من الاوامر والنواهى الالهية ، اما بالخروج عليهـا ظاهرا جهارا ، واما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهـم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا لوازم الأخوة الاسلامية التى عقدها الله فى كتابه بين المسلمين

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ، ولا نجاة لهم الا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنه رسول الله . ومن الخطـأ كل الخطـأ ان يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فان فى دينهم من الاخلاق الكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للانسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى تحث على البذل والصدقة ، والتضحية فى سبيل الحق ــ ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق انهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم ان الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما فى العالم من شرور قد تطوح بالانسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها فى الآخرة الى النار

لعل هذه العبرة توقظ النائم ، وتنبه الغافل ، وتحرك الجامد ، ولعل نفحة من قبل الله تهب فتعدهم لتلقى النور الالهى ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز

وجملة ((**بين يدى الله**)) : تدل بعد ما تقدم على الحضور ، والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شىء عليم » (١)

واذا عرفت ان الآية جاءت لتقرير أصل من اصول الاسلام عظيم ، وبيان ما يجب من الأدب مع الله سبحانه ، فلايعنينا بعد ذلك ان نبين سبب النزول ، وان نذكر انها نزلت فى مماراة الشيخين ابى بكر وعمر رضى الله عنهما فيمن يكون امير وفد تميم ، أو فى ذبيحة الأضحية ، او فى النهى عن صوم يوم الشك ، او فى غير ذلك

وبضم التاء فى « تقدموا » قرا قراء الأمصار . وقال ابن جرير : لا استجيز القراءة بخلافها لاجماع الحجة من القراء عليها . وقرا بعضهم « لا تقدموا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا

* « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » :

ظهور الشىء بافراط لحاسة السمع او حاسة البصر : جهر . فمن الأول : « سواء منكم من اسر القول ومن جهر به (٢) » ، ومن الثانى : رايته جهارا ، و « أرنا الله جهرة » . **والحبط** : ماخوذ من الحبط ، وهو أن تكثر الدابة من الاكل

---

(١) المجادلة : ٧ (٢) الرعد : ١٠

حتى ينتفخ بطنهـا . وفى الحديث « ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم »

وحبوط الاعمال على أضرب :

احدها : ان تكون الاعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغني فى الآخرة شيئا ، كما فى قوله تعالى : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (١) »

والثاني : أن تكون اعمالا أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى انه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارىء ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به الى النار »

والثالث : أن تكون أعمالا صالحة ولكن توجد بازائها سيئات تطغى عليها

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهـذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبى صلى الله عليـه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين الا يجعلوا أصواتهـم عنـد الحديث مع الرسول الأكرم مرتفعة فوق صوته ، والا يكون خطابهم اياه كخطاب بعضهم بعضا فى الجهر وعلو الصوت . وقد قيل : ان الأول يخص حال المكالمة ، والثانى حال صمته عليه السلام . وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته اذا نطق ، ولا تجهروا له عنـد دعائه اذا سكت وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن يراعوا فى دعائه ومخاطبته اللين فى القول ، أدبا مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه ان النهى عن رفع صوتهـم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتما الا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضا ، فلو لم يحمل احد النهيين على

---

(١) الفرقان : ٢٣

حالة ، والآخر على حالة أخرى ، لزم التكرار ، وأن يكون الثانى تأكيدا . والظاهر أنه لا داعى الى هذا ، لأن الأول أفاد النهى عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وان تضمن ما تضمنه الثانى ، لكن الثانى يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم ، وأن ما يليق بهم فى التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والرقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن

نهوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مثوبة ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهى جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الانسان غافلا عما فى المنهى عنه من سوء ، وبخاصة اذا كانت العادة متأصلة ، وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبى عهد بالتبدى ، ومن عادة التبدى الجفاء فى الخطاب ، والاغلاظ فى القول

أدبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبى جبارا ولا متكبرا ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تقفه الأمة فى الطريق لتحدثه فلا يتركها حتى تتركه ، وقال : « انما انا ولد امرأة كانت تأكل القديد » ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفكر والهم ، كثير الشواغل ، يتلقى الوحى من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر فى عزتهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر فى حرب من يحاربه ، وسلم من يسالمه ، ويفكر فى توفير الخير للمسلمين ، وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومن كان هذا حاله وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شيء مشوش للخاطر

أدبهم الله هذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ، ومن شأن النهى أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب فى القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ،

فهذا الأدب كما انه ادب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا تجد رجلا لين القول سهلا عند الحديث الا وهو ذو نفس مهذبة صقلته الايام ، وفاض عليه طيب عنصره وكرم ارومته مما جعله محببا عند الناس

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه ، ويداوم على التنبه اليها ، وقد يكون ارتكاب محرم ما داعيا الى استمرائه والاسترسال فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الاعمال من حيث لا يشعر . فالرذيلة تكون أولا حالا ، ثم تصير ملكة ، وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق وانت لا تدرى . وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يا رسول الله : والله لا أكلمك الا السرار او اخا السرار حتى القى الله ! وكان اذا قدم على رسول الله الوفود ، أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى ايضا أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس فى بيته يبكى ، وقال : انى رجل جهير الصوت ، واخاف ان يكون قد حبط عملى ! فبعث اليه صلى الله عليه وسلم وقال : انك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيدا ، رضى الله عنه

* « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » :

الغض : النقصان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم (١) » « واغضض من صوتك (٢) »

---

(١) النور : ٣٠ (٢) لقمان : ١٩

والامتحان فى الأصل : اذابة الذهب ليخلص ابريزه من الخبث وينقى منه. ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلانا لأمر كذا فوجده قويا عليه ، أى جربه . ويلزم من هذا معرفته

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيب فى القول اللين ، فقد جعل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفاها وأعدها للتقوى ، أو عرف الله قلوبهم معدة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات ، ولهم اجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات

* « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » :

الحجرة : القطعة من الارض تحجر ، اى يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه. **ووراء :** فيه معنى المواراة والاستتار، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، اذا لم تره فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رايت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت ازواج النبى صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدى ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس

لذلك . وقد قال سعيد بن المسيب اذ ذاك : والله لوددت انهم تركوها علي حالها ليراها النشء من اهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا الى ترك التفاخر والتكاثر

وعن زيد بن ارقم : جاء اناس من العرب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فان يكن نبيا فنحن اسعد الناس ، وان يكن ملكا عشنا فى جناحه ، ثم جاءوا الى حجر النبى ينادونه : يا محمد ، فانزل الله هذه الآية ، وقد تأذى الرسول صلى الله عليه وسلم من ندائهم على هذه الصفة

وقد حكم الله على اكثرهم بعدم العقل ، اما لان فيهم من لم يكن موافقا ، او لانه اقام الاكثر مقام الكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الادب فى النداء ، والجهل بما ينبغى ان يكون عليه الطالب ، من تخير الوقت ، وتخير المكان ، وتخير العبارة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس الا حيث تتقاضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب الا تترك له الفرصة للاستجمام

ولو ان هؤلاء صبروا حتى تخرج اليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور : يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها الا تلك الطبيعة الجافة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته ان ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق النداء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دققت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت خروجه . وكان

ابن عباس يذهب الى ابى فى بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بادبه الكريم ، وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » :

فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، اذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وهو اعم من الكفر ، لكن اكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع واقر به ثم اخل بأحكامه كلها او بعضها . وقوله تعالى : « افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا (١) » يدل على ان الفسق اعم من الكفر ، لأنه قابل به الايمان

والبيان : الكشف عن الشيء ، وبينته وابنته ، اذا جعلت له بيانا يكشفه ، **والتبين** : التعرف وطلب البيان . **والندم** : التحسر من خطأ الراى فى امر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المنادمة والمداومة . فالندم : تحسر يلازم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتثبتوا . وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارىء فهو مصيب

وقد روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد ابن عقبة فى صدقات بنى المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه ، تعظيما لمن بعثه رسول الله ، فحدثه

(١) السجدة : ١٨

الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : ان بنى المصطلق منعوا صدقاتهم ، فأغضب ذلك النبى والمسلمين معه،وهم بغزوهم، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعثت الينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية

وايا ما كان سبب النزول، فالآية تقرر اصلا عظيما له خطره فى الحياة . وكم فرق الكذب بين الأصدقاء ، وكم سفك من الدماء ، وكم شن من غارات ، وأثار احنا وترات ، وكم فرق العشائر ، وذهب بالأنفس والأموال ! لذلك كان للصدق من المكانة ما جعل النبى عليه السلام يقول فيه : « ان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطة ما جعل النبى عليه السلام يقول فيه : «ان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار » ، الا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجىء من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجىء من نواح اخرى ، فقد يكون الرجل عدلا لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ، فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ، وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فتدس اليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق

والتثبت من الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، واكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على اشد الناس تثبتا من الأخبار

وكثيرا ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع

والضرر ، يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد ان يكذب بطانتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم

والذين هم فى اشد الحاجة الى العمل بهذه الآية،هم الذين بيدهم مقاليد الامور ، وبيدهم الضر والنفع ، اما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم اليها اقل من حاجة هؤلاء . والآية على العموم ادب عظيم لا بد منه لتكميل النفس ، واعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل

ولو ان النبى صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، واخذ منهم اموالا بغير حق

فالله تعالى يرشد عباده الى هذا الادب الكامل ، ويحذرهم ان يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها ، وقبل التثبت ، لئلا يصيبوا اقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الكاذبة التى لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين، يلازمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن ان يتعلم طرق الكشف عن الأخبار،ويروض نفسه عليها. وقد قال الحسن : فوالله لئن كانت الآية نزلت فى هؤلاء القوم خاصة انها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شىء . **والنبا** : هو الخبر العظيم . اما الأخبار التافهة التى لا يترتب شىء عليها ، فهى فى غير حاجة الى التبين والتثبت

* « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ،

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون . فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً . وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

العنت : الجهد والمشقة والهلاك . **والزينـة** ثلاثة انواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجة عنهما كالجاه والمال

كفر النعمة وكفرانها : سترها بترك اداء شكرها . والكافر على الاطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، او الشريعة ، أو النبوة ، او ثلاثتها . وقد يقال : كفر ، لمن اخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله ، نحو « من كفر فعليه كفره » اذ هو مقابل لقوله : «ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون (١)» . والذى تنطوى عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمـة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليـه « ان الانسان لـكفور مبين (٢) » ، لكنه قد يخرج بالتعليم والتهذيب وتقويم الدين الى حالة اخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعـالى : « وكره اليكم الـكفر والفسوق والعصيان » . فهؤلاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغمرهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، فحبب اليهم الايمان ، وصار زينةعندهم ، وكرهوا الكفر والفسوق ، والعصيان

والعصيان : خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . واصله ان يمتنع الرجل بعصاه

والرشد : خلاف الغى ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرشد فى الأمور الدنيوية والأخروية ، والرشـد فى الأمور الاخروية لا غير . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا

والحكمة : اصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله :

---

(١) الروم : ٤٤ (٢) الزخرف : ١٥

علم الأشياء ، وايجادها على غاية الاحكام،وبالنسبة للانسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات

تذكر الروايات التي رويت فى قصة ابن عقبة وبنى المصطلق ، ان النبى عليه السلام حدثته نفسه بغزوهم ، وانه غضب على بنى المصطلق بعد ان سمع خبر ابن عقبة ، وانه لم يصدق وفدهم عند حضوره الا بعد نزول الآية ، وانه بعث خالدا وامره باستطلاع حالهم ، وعدم العجلة فى حربهم ، وأن من المسلمين من حسن غزوهم ، ومنهم من كان مع الرسول فى التريث والتثبت

وقد دعا هذا بعض المفسرين الى توزيع الخطاب ، فجعل قوله : « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » لمن كان همه غزوهم ومطالبة الرسول به ، وقوله : « ولكن الله حبب اليكم الايمان » للفريق الذى لم يطالبه بالغزو وكان معه فى التريث وطلب التثبت ، ورأوا انه لا يصح ان يكون المخاطبون واحدا فى الطرفين ، لانه ذكر أولا ان طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانيا انه حبب اليهم الايمان ، وكره الفسوق والعصيان، والأمران متناقضان لا يجتمعان فى فريق واحد . غير ان توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن واعجازه، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ، وسيعلم ذلك مما يأتى :

بعد أن حذر الله المؤمنين اخبار الفاسقين ، نبههم الى ان الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالعيان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وتوقيه ، لأن المؤمنين ورئيسهم الأعظم بينهم ، يجب ان يكونوا بعيدين عن الدنايا ، وعن الكذب الذى يؤدى الى المفاسد ، ويجر الى ويلات قد يشترك فيها النبى الأكرم ، ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، ان يوقعه فى مثل هذا الخطر الذى يؤدى اليه الكذب ، وهذا الحب وهذا الاجلال يدعو الى الاحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق ان يقع

فيه . والاعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذى يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك عاد الحديث الى الطاعة ، والى عدم السبق بالرأى ، والتعجل فى الحكم ، وهو موضوع أول آية فى السورة

والسر فى ذلك الوجوب : هو ان الرسول مبلغ امر الله ، ومبين له ، وانه ادرى بالأغراض الالهية ، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحى، ويمده النور الالهى ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ، فيجب ان يطيعوه لا أن يطيعهم ، ولو أن الامر انعكس وأطاعهم لنالهم من طاعته اياهم عنت وجهد ، ومشقة وهلاك، ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى‌الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع الا ما يوحى اليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يجر حديث عنه فى الآية ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم ايمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حبب اليهم الايمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعى طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وحسنه فى قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوب ما نهى الله عنه ، وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذى فعل الفعل البعض ، تنبيها على أن المسلمين يعدون وحدة وان كثرت الاعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر ، والعصيان على الصغائر

وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق فى كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل الفسوق على الكذب ، والعصيان على الاخلال بالأركان

ثم وصف الله سبحانه من حبب اليهم الايمان وكره اليهم

الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون اليه ، وبين انه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : ان الفعل اذا نظر الى صدوره من جانب الحق سمى فضلا ، واذا نظر الى وصوله الى العبد سمى نعمة

والله عليم : بأحوال الخلق ، وبالمحسن منهم والمسيء ، ومن هو اهل لفضله ، ومن ليس اهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعها

* « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشيء : قطعة منه ، وهى جمع طائف ، وقد يكنى بالجمع عن الواحد ، فيراد بها الواحد

والبغي : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوزه . وهو قسمان : محمود ، ومذموم . فالأول : تجاوز العدل الى الاحسان ، والثانى : تجاوز الحق الى الباطل ، أو تجاوز الحق الى الشبه ، وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بين والباطل بين ، وبين ذلك مشتبهات ،

---

(١) المشهور فى الرواية « الحلال بين والحرام بين الخ » . والرواية المذكورة ساقها « الراغب » فى مفرداته

ومن رتع حول الحمى اوشك ان يقع فيـــه » . وقول الله سبحانه : « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغـون فى الأرض بغير الحق » دليل على ان هناك بغيا بالحق

والفىء والفياة : الرجوع الى حالة محمودة . **والعدل** : هو التقسيط على سواء ، وهو مساواة فى المكافأة ، ان خـيرا فخير ، وان شرا فشر . والاحسان : مقابلة الخير باكثر منه ، والشر باقل منه . ويقال : قسط الرجل ، اذا جار فأخذ قسط غيره ، واقسط ، اذا عدل فأعطى قسط غيره

روى عن ابن عباس ان الآية فى الرجلين ، او النفر والنفر ، او القبيلة والقبيلة من اهل الاســلام : يقتتلان ، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين ان يقضوا بينهم بالحق الذى انزله الله فى كتابه : اما القصاص والقود ، واما العقل والدية ، فان بغت احداهما على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان فى الآية واجب الامام ، لأنه قائم مقــام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ، فاذا وجد بلد لا يمتد اليه سلطان امام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الامام . ولجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة فى كتب المذاهب . وروى الزهرى عن سالم عن رســول الله صلى الله عليه وسلم : « المســلم اخو المســلم لا يظلمه ولا يسلمه »

وعلى هذا فاذا اقتتل اثنان او جمعان من المســلمين ، فعلى الامام الاصلاح بينهما ، بالدعاء الى حـكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وازالة الشبهـــة ، فان تعدت احداهما ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت العلو بغـير الحق ، ورضيت به الطائفة الاخرى ، قاتل المسلمون الطائفـة الباغية حتى ترجع الى حكم كتاب الله ، فان رجعت بعـد القتال،اصلح بينها وبين الطائفة الاخرى بالعدل والانصاف ،

ولا يكتفى بالمتاركة والمحاجزة والكف عن القتال ، بل لا بد من الاصلاح بالعدل ، لتزول الضغينة، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك الى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فاذا قبضت أيديها عن الحرب وكفت ، تركت ، واذا ولت وركنت الى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيئها ، وان بغى الفئتان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التى يراها المسلمون كافلة للموادعة والمكافة ، فان لم تتحاجزا واقامتا على البغى ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البغى فساد فى الأرض ، وخروج على السنن الالهية ، وتعد على العدل الذى يحبه الله ويأمر به ، وعلى المسلمين أن يطهروا الأرض من البغى والفساد ، لتعمر بالعدل والاحسان

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقواما عليه . ومن حق من يضعه الله فى هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف، أن يعد نفسه لهذا الشرف، وان يقدم كل شىء يملكه تلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن ، من نفس ومال

وان اقتتل فئتان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما ترى نفسها محقة ، وجب ازالة الشبهة واطلاعهما على مراشد الحق ، فان ركبتا متن الغواية واللجاجة ، ولم تعملا بما هديتا اليه ونصحتا به ، اعتبرتا فى حكم الباغيتين

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلفه العادل على الباغى ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا اجمالا :

اما المتلفات فى غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة فى قصاص النفوس وغرامة الاموال . واما متلفات القتال فلا تضمن ، لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن

الباغى لأن ازالة الضغينة وحب الاسراع فى وقف القتال يدعوان الى التسامح فيما أتلف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التى جرت فى عصر الصحابة والتابعين، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الاموال المأخوذة فى القتال ترد بعد انقضاء الحرب الى أهلها من الجانبين . وهذا كله فى البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة، ولهم تأويل باطل ، أما الذين لا شوكة لهم فهم فى حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلفوه من نفس ومال

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمنهم، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه: «واقسطوا ان الله يحب المقسطين» ، ومنهم من نفى الضمان عنهم

* « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ. وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » :

فى هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الاصلاح فى الآية السابقة ، وبيان للعلة فيه . ذلك أن الايمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو ان لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه اذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد لزم سائر الناس ان ينهضوا فى ازالته ورفعه ، ويمشوا بالصلح بينهما ان يرقعوا ما وهى من الوفاق ، فالأخوة فى الدين أحق بذلك، واحق باكثر منه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح الا باذنه »

وطلب الله بعد عقد الاخوة بين المؤمنين ان يتقوه ، وبين ان تقواه سبيل التواصل والتراحم ، وأن هذا سبب وصـــول رحمة الله اليهم

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منـــه بعين النقص ، واحتقاره قولا أو فعلا بحضرته

والقوم : الرجال خاصــــة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ، ومنه قول زهير : أقوم آل حصن أم نساء * وأما قوم فرعون وقوم نوح عادة ، فمن باب تغليب الذكور على الاناث

واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعايب فى حضرته • ولا يدخـــل فى مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل فى السخرية • وهذا هو الفارق بينهما

والتنابز بالألقاب : التداعى بها • **والاسم** : معنـــاه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه فى الآفاق

ينهي الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا

لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس ٠ وقد جاء النهى فى الآية منصبا على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية فى المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء ٠ على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوى على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه

ثم بين الله تعالى العلة فى النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيرا من الساخر فى الواقع ونفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطلعون الا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شىء يقام له وزن عند الله الا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشىء منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترىء على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيون لرثاثة حاله، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعى اللسان وفهاهته ، فلعله أخلص ضميراً ، وأنقى قلبا ، وأطهر سريرة ، ولعله يحمل بين جنبيه نفسا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذبة بالعلم ، ولعله فى هذا كله أحسن حالا من الساخر ٠ وفى السخرية ظلم بتحقير من هو فى نفسه عظيم لا يستحق التحقير

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضا بما يكرهونه من الألقاب ، ونبههم الى أنهم ، وهم كنفس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضا ، لأن الطاعن فى هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ، وهذا هو السر فى قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللامز انما يلمز غيره لا نفسه ٠ وذهب صاحب الكشاف الى أن المعنى : وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهى عن اللمز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على سيرتكم ، وهم المجاهرون بالفسق ٠ وفى الحديث

الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء اليه . ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشيعوا الكنى فانها منبهة . وقل من تجده من المشاهير في الجاهلية أو الاسلام ولا تجد له لقبا حسنا أو كنية : كالعتيق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وسيف الله لخالد . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى فى الأمم كلها فى تخاطبهم وكتاباتهم من غير نكير

تقدم النهي عن التلقيب بما هو مكروه ، ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » . والهمزة : الطعان فى الناس

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعى بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذى حل قلبه الايمان أن يطلق عليه كلمة فاسق ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عرف بالايمان

فمعنى «بئس الاسم الفسوق بعد الايمان» : بئس الذكر أن يذكر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالايمان ، أى أنه لا ينبغي اجتماع هذين الوصفين : الايمان والفسق ، كقولهم : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة . وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة – أى ما يكون فى حال الشباب من الميل الى الجهل – وكبر السن

وينبغي أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو اليه الضرورة فيذكر لا على

قصد التحقير ، كما يقول المحـدثون : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب · وفى هذه الحالة لا ينهى عنه

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبـة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصى ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه

وينبغى أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهى ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب اليه · كلا ! هــذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذى يطلبه الله سـبحانه ويحبه : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »·والتوبة تستدعى معرفة عظم ضرر الذنوب والادمان عليهـا ، وتستدعى ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الانسان بوصول الألم الى العظم ، وحزه فيه ، وبأن كبده تكاد تذوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفـــرج له الا الله سبحانه ، وتستدعى العزم على ترك الذنب والاقلاع عنه

فحقيقة التوبة : علم ، وندم ، وقصد · واذا فقد أحدها فقدت · وغير خاف أن معرفة كون المعاصى مهلكات جزء من الايمان ، وعدم المبـــادرة الى التوبة مفوت لجزء من أجـزاء الايمان ، ولو كان الايمان كاملا لما أقدم مؤمن على معصية · وهذا يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » · ولابد فى التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « انما التـــوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما · وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتـدنا لهم عذابا أليما (١) » · وقد يسترسل المذنب فى ذنوبه حتى

(١) النساء : ١٧ ، ١٨

تصير طبعا ، ويران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب، ولا القصد الى الخلوص منه ، فاذا قال صاحب هذا القلب : انى تبت اليك ، كان قوله كقول القصاب الذى يغسل الثياب : انى غسلت الثوب ، دون أن يغسله

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » :

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم شاع فى التباعد اللازم له

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة قوية أو ضعيفة ، فان قويت جدا أدت الى العلم ، وان ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوهم

والاثم : الفعل المبطىء عن الثواب ، وجمعه آثام . وقوله : « أخذته العزة بالاثم (١) » معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذى يحتمل الاثم

والجس : مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم . وهو أخص من الحس ، فان الحس تعرف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الانسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس

---

(١) البقرة : ٢٠٦

والغيبة : أن يذكر الانسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يحرج الى ذلك. وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فان كان فيه فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته »

من الظن ما يباح اتباعه : كالظن في أمور المعاش وما أشبه ذلك ، ومنه ما يجب اتباعه : كالظن في الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ، ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن في الالهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعي قطعي يخالفه. ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين، فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء. والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، أما حديث النفس ، والخواطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه. والمنهي عنه ركون النفس وميل القلب. والأسرار لا يعلمها الا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد سوءا الا اذا انكشف لك بعيان ، أو ثبت ببرهان. أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك ، بل وقع في قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب. ولا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بينة عادلة. وأمارة سوء الظن وعقد القلب ، تغير القلب عما كان. نعم قد يعذر الانسان في ظن السوء اذا أخبره العدل الثقة

هذا الذي سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أونست فيه الأمانة ، أو شوهد منه التستر ، أما المجاهر بالمعاصي ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وان لم يره الظان على معصية ، لانه مكن من صفحته ، وأزال حرمة عرضه

ومن الظن ما هو قهري غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق

به النهى لعدم القدرة عليه، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه. وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءا ، فهـذا الظان لا يضره أن يحترس ، لكن يضره أن يوقع أذى بالمظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الى بعض اخوانى : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن الا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وعليك باخوان الصدق ، فكن فى إكتسابهم، فانهم زينة فى الرخاء، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، الا الأمين ، ولا أمين الا من خشى الله تعالى ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب »

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة الى التحقير والسخرية واللمز ، ومدعاة الى ايقاع الضرر بالمظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيرا » ، فان بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن التجسس ، وتتبع عورات المسلمين ، ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته، ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « انك ان تتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت تفسدهم » . وقال أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت اليه أحدا حتى يكون معى غيرى . وفى الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته ». وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه،

فلا يجوز الدخول عليه بغير اذنه لتعرف المعصية • وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب الى تتبع العورات بعض الاحيان ، فقد كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيته يتغنى ، فتسور عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : يا عدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟! فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل على ! ان كنت عصيت الله تعالى فى واحدة فقد عصيت أنت الله فى ثلاث : قال : « ولا تجسسوا » وقد تجسست ، وقال : «وأتوا البيوت من أبوابها» وقد تسورت، وقال : «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وقد دخلت بغير اذنى !• وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعاتك وعصيانك أشد ! فقال عمر : فهل عندك من خير ان عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا ! فعفا عنه عمر ، وخرج وتركه

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ، ونهى عن الغيبة أيضا ، وهى أن يذكر الانسان أخاه المسلم فى غيبته بما يكرهه ، سواء أكان الذكر صراحة،أم كناية ، أم اشارة، أم رمزا ، وسواء أكان ما يذكره متعلقا بدينه أم دنياه ، وبخلقه أم خلقه ، وسواء أكان متصلا به أم بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب وأم•وتحرم غيبة المعروف بالصلاح ، ومستور الحال ، ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق، والداخل فى مواطن الريب • وقد نقل القرطبى اجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر • وبعد أن صورها الله أبشع تصوير فى آخر الآية ، لا يصح أن تعد فى الصغائر• ثم منها ما هو هين كعيب الشخص فى لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ، فاذا قيل ان مثله من الصغائر كان مقبولا

ويجوز لمن ظلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما

يعد عيبا ، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ، ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، واطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامى ، كما يجوز ذكر ما فى الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن فى المسلم ، والقول فيه بغير علم ، ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ، ونهى عن اذاعة ذلك اذا تحقق • وختمت الآية باطماع المؤمنين فى رحمة الله بالتوبة ، وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة: « ان الله تواب رحيم »

ومن أخبث أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ، ولكنهم يحتالون عليها بالباسها ثوب الدعاء والاشفاق لمن يريدون اغتيابه • مثلا يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان، ولا بطلب حطام الدنيا ! أو يقولون: والله ما أحسنه ! ما كان يقصر فى عبادة ، لكنه ابتلى بما يبتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غمنا أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يظهر القارىء والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتعجب من ظهور المنكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلا : انظر انما نحن فى آخر الزمان ، لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغنى أن فلانا فعل كذا

وللغيبة أسباب ، أهمها : الغيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الانسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها، ومجاملة الرفقاء ، وارادة أن يرفع الانسان نفسه بالنقص من غيره • ومنها الحسد ، وهو أهم الاسباب • ومنها اللعب ، والهزل، والمفاكهة ، واضاعة الوقت

وقد صور الله المغتاب على أفحش وجه وأشنعه ، وضرب له مثلا من يأكل لحم أخيه ميتا ، وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه ، فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه • ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت اذا مزق لحمه ، وكان المغتاب آكلا لحم أخيه ميتا

وقوله تعالى : « فكرهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحد أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فان صح هذا منكم ، وهو لابد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة

وهو تواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه• وهو رحيم: يرحم التائبين

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس • ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وقول الآخر :

فان يأكلوا لحمى وفرت لحومهم
وان يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

* « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » :

الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات التى عليها العرب .

أعنى أنها أعم الطبقات ، فهو أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العمارة، والعمارة أعم من البطن، والبطن أعم من الفخذ، والفخذ أعم من الفصـــيلة • فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمـــــارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة • وسميت شعوبا لأن القبائل وما بعدها تتشعب منها وتتفرع عليها • وقيل: ان الشعوب فيالعجم، والقبائل فى العرب ، والأسباط فى اليهود

ومعنى الآية : ان الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم، فهم متساوون فى أصل الخلقة ، وفى المادة التى منها الخلقة ، كما أنهم متساوون فى الصدور عن الاله جل شأنه ، وان الله جعلهم شعوبا وقبائل ليعرف بعضهم بعضا فى قرب القرابة وبعدها ، وليصلوا الأرحام ، ولا يعتــزى أحد الى غير آبائه • والنسب غير مكتسب للانسان ، وليس للانســـــان الا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مدارا للفخر • والتقوى هى المكتسبة ، وهى التى عليهـــا تجرى المقاييس عند الله تعالى ، فاذا جاز الفخر بشىء ، فان أحق شىء بالفخر هو التقوى فافخروا بها ، فان أكرمكم عند الله أتقاكم • فقوله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » تعليل للنهى عن الفخر بالأنساب ، وبيان للطريق الصحيح فى الفخر • والله خبير بأحوال الناس ، عليم بأعمالهـــم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ويقدم أحسنهم عملا ، لا أشرفهم نسبا

وقد استفاضت الأخباربأن الكرامة لاترتبط بالأنساب، بل بالعمل • من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله • الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » ، ثم قرأ هذه الآية • وخطب صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال : « ألا ان ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمي ، ولا

لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمـــر ، ولا لأحمر على أسود ، الا بالتقـوى ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت؟ » • قالوا: بلى يا رسول الله، قال : « فليبلغ الشاهد الغائب » • وعنه صلى الله عليه وسلم : « لينتهـــين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان (١) »

الاسلام دين عام خالد ، قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة ، واعتبرهم جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضـــو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى • وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الاسلام ، تقاتل مخالفيه ، وتنشر تعاليمه ، وتثبت قواعد التوحيد ، اذا استمرت القبائل تفخر على القبائل ، والشعوب تفخـر على الشعوب • وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجنـــاس تشعر بالتفاوت والتغـــاير • ولا بد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها ، وتنتظمها وحدة تكون هي الغـاية التي يحافظ عليها ، ويقاتل من أجلها • وهذه الوحدة التي اعتبرت ، رباطها الايمان ، فهو الجامع لجميـع الأجناس ، والموحد لجميع القبائل والشعوب ، وهو الذي يدافع عنه ، ويقاتل من أجله

بهذه الآية وجد الرباط القوي بين الأمم والأجناس ، وقضي على النزعة الهادمة التي كانت تسود العرب ، حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ، ويفخرون بنسبهم على العجم ، وكان هذا التفاخر يوجد بينهـــم أحيانا عداوات وترات •

وبهذه القاعدة مهد الاسلام للعامل المجد ، أن يفتـــح أمامه طريق المجد ، وأن ينال في الدنيا ما يصل اليه جهده ، وفي الآخرة ما تعده له تقواه • والتقوى تنال بالأعمال الصالحة، وليست الاعمال الصالحة صلاة وصوما وحجا فحسب ، بل

---

(١) الجعلان بكسر الجيم : جمع جعل بضم الجيم وفتح العين : دابة سوداء كالخنفساء • وقيل هو أبو جعران

هى هذه وحياطة الاسلام ، والجهـاد فى سبيله وفى سبيل الحق • وفى آخر هذه السورة : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » ، فمن الممكن أن يكون أى شخص هو الأكرم عند الله • واذ قد عرف المسلمـــــون أن الكرامة عند الله بالتقوى ، فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو المعيار عندهم، وأن يكون المتقون هم الأكرمين

هذا هو السمو بالنفس الانســـانية الى أعلى الدرجات ، وهذا ما جاء به الاسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، وكان الناس اذ ذاك فى ظلمة العبودية وتقديس الطغيان • وبعـد أن عرفت الأمم هذا فخرت به ، وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف، والاسلام عاثر الجد بينهم بما هو براء منه، وبما جاء لهدمه

جاء الاسلام بهدم مزايا الاجناس ، وبالتعويل على التقوى والعمل الصالح • وأين هذا مما عليه المسلمون الآن ، من اعتزاز كل أمة بجنسها ، وكل واحد بقبيلته أو أسرته،مما أدى الى تقطيع الروابط،والى ألا يكون المسلمون تحت وحدة يدافعون عنها ، فأصبحوا أذلة بعد العزة ، وضعفاء بعـــد القوة ، فهـم على كثرتهم كأنهم غثاء السيل ، لا يقام لهم وزن :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شـهود

هذه الآداب التى ساقها الله فى الأيام السابقة ، والتى طلب أن يكون عليها المؤمنون، قائمة على أصول هى: اعتبار المسلمين وحدة ، واعتبار أفرادهم أخوة • وقائمة أيضا على أصل خطير فى الحياة ، وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم ، والأخذ بيد الحق ، والوقوف فى صف المظلومين • هـــذه درجة سامية كرمهم الله تعالى بها،ومن الواجب أن يفقهوها، ويتدبروها، ويعملوا عليها، ليكونوا أشرف الناس، وأعزهم

جانبا ، وأكرمهم مبدأ • ونسأل الله الهداية والتوفيق

* « قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » :

الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف • وقد أخذ منه الايمان وجعل اسما للتصديق الذىمعه الأمن، وهو الاذعان للحق ، ومنه قول الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا (١) » أى بمصدق • والاسلام : استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد • والتسليم عام ، يكون فى القلب واللسان والجوارح • فالاسلام أعم ، والايمان أخص ، وهو أشرف أجزاء الاسلام

هذا ما تعطيه اللغة ، لكن الايمان والاسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى ، فقد استعملا مترادفين ، ومختلفين ، ومتداخلين

ومن الترادف قول الله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين • فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٢) »، ولم يكن فيها بالاتفاق الا بيت واحد• وفى الحديث الشريف « بنى الاسلام على خمس » • وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم مرة عن الايمان فأجاب بمثل هذا

ومن الاختلاف قول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل

---

(١) يوسف : ١٧ (٢) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦

لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، أراد بالايمان التصديق وطمأنينة النفس ، وبالاسلام الانقيـــاد والاستسلام فى الظاهر • وفى حديث جبـــريل لما سأله عن الايمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـــوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب، وبالقدر خيره وشره » •• ولما سأله عن الاسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان»

ومن التداخل : سئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الاسلام ، فقيل : أى الاسلام أفضل ؟ قال : الايمان • وهو دليل على أن الاسلام أعم والايمان أخص • وهذا يوافق الاستعمال اللغوى ، لأن الايمان عمـــل من الاعمال هو أفضل جزء فى الاسلام ، لأن الاســـلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح • وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب ، وهو الايمان

وعند الترادف يكون هناك تعميـم فى الايمان ، باطلاقه على التصديق ، وعلى ثمرة التصديق، وهى النطق باللسان، والاتيان بالاعمال • وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص فى الاسلام ، حيث خص بالتسليم الظاهرى ، وهو الاقرار باللسان ، والطاعة بالاعمال

وقد جاء استعمال الايمان فى العمل الصالح : « وما كان الله ليضيع ايمانكم (١) » • وفى الحديث الشريف : « جعـــل اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء ، من الايمان »

ولا خلاف فى أن النطق بالشهادتين كاف فى اجراء أحكام الايمان فى الدنيا ، ويعتبر المقر بلسانه مؤمنا ، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه الا وهو منطو عليه قلبـــه ، كما أنه لا خلاف فى أنه اذا لم يكن مصدقا بقلبه فهو كافر مخلد فى النار • لكن هناك خلاف فيما يجب أن يضم الى التصديق

(١) البقرة : ١٤٣

القلبى للنجاة فى الآخرة ، وعدم الخلود فى النار :

فمن جمع بين التصديق والاقرار ، والاتيان بالاعمال الصالحة ، فلا خلاف فى أن الجنة مستقره ، ومن صدق وأقر وارتكب شيئا من الكبائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة ، لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ، ويخلد فى النار عند المعتزلة ، لأن مرتكب المعصية يخرج فى رأيهم عن الايمان ، والجنة لا يدخلها الا مؤمن • وهو عند الجمهور رجل عاص يدخل النار فيطهر فيها ثم يخرج منها لأنه لا يخلد فى النار الا الكافرون

ويمكن بعد هذا أن نقول : ان الايمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو التصديق وحده عند الجمهور وعند المرجئة • أما الايمان عند المعتزلة فهو مركب من ثلاثة أشياء : التصديق، والاقرار، والعمل الصالح • ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروى عن السلف ، رضى الله عنهم ، فقد نقل اتفاقهم على أن الايمان تصديق ، وقول ، وعمل • لكن الجمهور يقولون : ان المروى عن السلف هو تفسير للايمان الكامل الذى يجعل مستقر صاحبه الجنة ، وينجيه من دخول النار، وذلك للقطع بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتبرون العصاة غير مؤمنين • ولا شبهة فى أن المتتبع لآيات الله سبحانه ، وللسنة المحمدية ، وأقوال الأئمة ، يقطع بأن الاسلام يعتبر العصاة مؤمنين، يعذبون ويطهرون ثم يخرجون الى دار النعيم

لاته عن كذا يليته : صرفه عنه ونقصه حقا له • والمصدر ليت

ولا يلتكم من أعمالكم : أى لا ينقصكم من أعمالكم • ولات وألات بمعنى نقص

هؤلاء الأعراب اما أن يكونوا مصدقين مقرين ، واما أن

يكونوا مقرين غير مصدقين . فان كانوا مصدقين مقرين ، كان المعنى : لا يصح لكم أن تقولوا آمنا على الاطلاق ، لأن معنى آمنا ، على الاطلاق : حققنا القول بالعمل ، ويصح لكم أن تقولوا قولا لا اشكال فيه على سامعيه ، وان قلتموه كنتم محقين فى قوله ، وهو أن تقولوا : أسلمنا ، أى دخلنا فى الملة بالشهادة التى تحقن الدم وتصون الأموال . وعلى هذا يكون معنى قوله : « ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » : لم يدخل العلم بشرائع الايمان وحقائقه ومعانيه فى قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله ، وتعملوا بما فرضه الله عليكم ، وتنتهوا عما نهاكم عنه ، لا يظلمكم شيئا من أجور أعمالكم، ولا ينقصكم من ثوابها شيئا . وهو غفور لمن تاب ، ورحيم لا يعاقب بعد التوبة . ويمكن أن تكون الطاعة هنا بمعنى التوبة عن النفاق ، وعقد القلب على الايمان ، ليوافق القلب اللسان ، فاذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم ، وغفر لكم

وان كانوا مقرين غير مصدقين ، كان المعنى : لم تؤمنوا ايمانا وافق القلب فيه اللسان ، لأنكم لم تصدقوا ، وقولوا أسلمنا ، أى انقدنا ودخلنا فى زمرة أهل السلم، ولما يدخل الايمان الحقيقى وهو التصديق فى قلوبكم . ولا تكرار بين قوله : « لم تؤمنوا » وقوله : « ولما يدخل الايمان فى قلوبكم» لأن الجملة الثانية فى موضع الحال من الضمير فى «قولوا»، وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه ، فالمعنى : قولوا أسلمنا فى الوقت الذى لم يدخل الايمان فيه قلوبكم

* « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » :

رابه : أوقعه فى الشك والتهمة ، وارتاب : مطاوعه ، وريب المنون : ليس الشك فيه من جهة حصوله ، بل من جهة وقته

والمجاهدة: استفراغ الوسع فىمدافعة العدو • **والجهاد**: يشمل جهاد العدو الظاهر ، وجهاد النفس • وفى الحديث: « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » • والجهاد الظاهرى يكون باليد ويكون باللسان • وفي الحديث : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم »

يقول الله سبحانه : ليس الايمان هو ما زعمتم من قول لا يوافقه عقد القلب ، أو من تصديق وقول لم تؤازرهما الأعمال ، ولم تشدهما الطاعة، بل الايمان الذى يعتمده الله سبحانه ، ويستحق أهله الحمد والثناء ، ويباعد بين أهله وبين النار ، هو تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح ، بالطاعة ، وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والتضحية بالنفس والمال ، فى سبيل الله الذى ارتضاه لعباده ، وهو اعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البغى ، وعمارة الأرض ، وتطهيرها من الفساد • أولئك الذين هذه خصالهم ، وهذا ايمانهم ، هم الصادقون اذا قالوا آمنا على الاطلاق ، وهم الذين ايمانهم ايمان صدق ، وحق ، وجد ، وثبات

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر، لأنه أشق أنواع الطاعة

وقوله : « ثم لم يرتابوا » اما أن يكون معناه : آمنوا واستمروا على التصديق والاذعان للحق ، ولم يعترضهم الريب بعد ذلك ، لأن المؤمن قد يبتلى بمن يضلله ويقذف فى قلبه ما يثلم اليقين ، أو ينظر نظرا خاطئا يسقط به على

الشك فيركب رأسه ، لا يطلب المخرج ، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذا • واما أن يكون معناه : آمنوا ولم يداخل ايمانهم ريب ، وأفرد بالذكر مع أن الايمان يقتضيه ، للدلالة على مكانة نفى الريب والشك من الايمان • وجاء « ثم » للدلالة على استقرار الايمان فى الأزمنة المترامية المتطاولة ، غضا طريا

الجهاد بالنفس يشمل القتال ، والمرابطة فى الثغور على حدود بلاد الاسلام، ويشمل الحراسة، وكل عمل من الاعمال التى يحتاج اليها القتال • والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر ، من الزكاة ، والصدقة ، وبناء المساجد ، والمصحات، وانشاء المرافق العامة للمسلمين • ومن أهم أنواع الجهاد بالمال ، تجهيز الغزاة بالمعدات ، والانفاق عليهم فى طعامهم وشرابهم ولباسهم

ذكر الجهاد فى هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة ، وفرض على المسلمين فى آية « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع الى الحق • والجهاد فى سبيل الله معناه الجهاد لاعلاء كلمة الله ، واعزاز دينه ، واعلاء كلمة الله واعزاز الدين اعلاء للحق ، فكان المسلم ندب من الله لنصر الحق واعزازه ، والضرب على أيدى البغاة ، وندب لتطهير الأرض من الفساد

هذه منزلة وضع بها فى الدرجة العليا من منازل الكرامة، فعليه أن يعد نفسه لها ، وأن يعتبر نفسه جنديا ، اما فى القتال والغزو ، واما فى الرباط ، واما على أهبة أن يدعى لواحد منها • وقد جعل الله أجر الجهاد عظيما ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه • ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد فى بقاء فرضيته الى الأبد ، وفى أنه فرض عين أو كفاية ، فهذه مسائل تكفلت بها كتب الفقه • ولكن مما لا نزاع فيه عند أحد أنه اذا قوتل المسلمون واعتدى عليهم،

قتالا للدين أو للوطن ، وجب على المسلمين الجهاد ، وقتال المعتدين ، وأنهم يأثمون جميعا اذا لم يتعاونوا جميعا على قتال الأعداء • والجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الذى لايقصد منه مغنم دنيوى • فعن أبى موسى أن اعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو فى سبيل الله »

ويمكن أن تعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الاسلام فى القتال :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (١) »

أمر الله ورسوله بالجهاد، وبين فضله، ورغب فيه • وفى الكتاب العزيز : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما(٢) » ، «لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما : درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفورا رحيما (٣) » ، « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين • الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

---

(١) الممتحنة : ٨ و ٩ (٢) النساء : ٧٤ (٣) النساء : ٩٥

وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفـــائزون • يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم • خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم (١) »

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « ضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهاد فى سبيله وايمان به، وتصديق برسله ، أن يدخله الجنة ، أو يرجعه الى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » • وعنه أيضا : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله • ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله ألا يرجع الى أهله ، ومن رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » • والرباط : هو الذى يكون آخر بلاد الاسلام على حدود بلاد الأعداء

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من أعان مجاهدا فى سبيل الله أظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله » • وقال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما فيها »

أمر الله بالجهاد ، وأمر بأن يعد للأعداء العـــدة ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة، فقال : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢) » • والقوة تختلف باختلاف العصور ، وتجد فى كل عصر عدة وأسلحة للقتـــال ، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم فى العدة، وعليهم أن يتقنوها، وعليهم أن يصنعوها ، وعليهم أن يحرزوا موادها ، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد ، وأسرار الصنعة • كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها ، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره ، واللغة العربية وعلومها

---

(١) التوبة : ١٩ ـ ٢٢ (٢) الانفال : ٦٠

لكن المسلمين قد حرموا بعض هذه المعارف ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان !

يجب على المسلم أن يعد نفسه جسمانيا ليكون دائما على أهبة القتال ، فيتعلم ضروب الرماية ، والسباحة ، ويمرن عقله ، ويمرن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار . كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وفى الحديث الشريف : « كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو ، الا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين (أى بين الهدفين اللذين يوضعان للرمى) ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة » . وعنه أيضا : « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها »

وحرم الله فى القتال الفرار من الزحف : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال ، أو متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير (١) »

وحث الله تعالى على الاسراع فى اجابة الدعوة الى القتال فى سبيل الله وحرم التثاقل ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم الى الارض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ! فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل . الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير (٢) »

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » .

---

(١) الأنفال : ١٦ (٢) التوبة : ٣٨ ، ٣٩

وفى حديث آخر : « خمس ليس لهن كفارة ـ وعد منهن : الفرار من الزحف »

هذه هي أحكام الجهاد ، وفضله . ولم يشرعه الاسلام للتوسع والغنم، بل شرعه دفاعا عن الحق ، وذودا عن حياض الدين

أعد الله المسلم ليكون فى القتال رجلا اذا دعا الداعى وحانت ساعة الاقدام ، وليكون ملكا مهذب الأخلاق ، سمح الطباع ، لا يسخر من أحد ولا يلمزه ، مؤدبا مع الله سبحانه: لا يقدم رأيا على رأيه ، ومع الرسول الكريم : يخاطبه باللين والرفق، ويجاهد نفسه وهواه . هذا هو المسلم الذى يريده الاسلام

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم ، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين ، وأن يهبوا لدفع الأخطار المحيقة ببلادهم ، والأخطار التى ربما قوضت مبادىء الدين ؟ !

أعتقد أن ناقوس الخطر دق ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح ، وأن الفرصة سانحة الآن لخير الاسلام والمسلمين

* « قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » :

يعنى : أتعلمونه عقيدتكم وتقولون آمنا ؟ ومعناه : أطعنا وتحققنا بالشرائع،أو صدقنا ووافق قولنا ما فى قلبنا وأنتم على غير ذلك ، وهـــو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية

* « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ،

بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » :

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : انا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله هو الذى يمن عليكم أن وفقكم للايمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فان كنتم صادقين فى قولكم آمنا، فالله وحده هو الذى هداكم لهذا الايمان الذى تزعمونه وتدعون أنكم أرشدتم اليه

يقال : من عليه بيد أسداها اليه . والمنة : النعمة التى لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ، لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المثوبة . ومن عليه صنعه : اذا اعتده عليه

قال صاحب الكشاف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة: ذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله اسلاما ، ونفى أن يكون ايمانا كما زعموا ، فلما منوا ما كان منهم قال الله لرسوله : ان هؤلاء يعتدون عليك ما ليس جديرا بالاعتداد به ، من حديثهم الذى حقه أن يقال له اسلام ، فقل لهم : لا تعتدوا على اسلامكم ، أى حديثكم المسمى عندى اسلاما لا ايمانا، بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حسب زعمكم للايمان ، فان صح زعمكم ، وصدقت دعواكم فالله صاحب المنة ، لكنه زعم يعلم الله خلافه

* « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » :

واذا كان يعلم الغيب فى السموات والارض ، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب ، والداخل فى الاسلام رغبة فيه ، والداخل خوفا من جند الله وحقنا لدمه ، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه، فهو يعلم ما تكنه الضمائر، وما تحدث به النفس ، وما غاب عنكم فاستتر فى خبايا السموات والارض . وهو بصير بأعمالكم التى تعملونها سرا وجهرا، وطاعة ومعصية ، وهو مجاز على هذا كله ، يجزى على الشر بالشر ، وعلى الخير بالخير

وأسأل الله العلى القدير، أن يوفق المسلمين لمعرفةدينهم، والعمل على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، انه سميع مجيب

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

* «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» :

سبحته : بعدته عن السوء ، مأخوذ من سبح اذا ذهب فى الماء وأبعد . **و «ما فى السموات والأرض»** : ما هو مستقر فيهما ، وما هو متصل بهما على أى نحو من انحاء الاتصال، فهو عبارة عن جميع الموجودات علوية وسفلية . والآية على هذا مساوية للآية الأخرى:«وان من شيء الا يسبح بحمده» . فجميع الموجودات تنزه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وبصفاته وبأفعاله وأحكامه ، وتدل على انه الواحد الأحد المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن سمات النقص ، وتدل على أن أفعاله صادرة عن ذاته على وفق العلم ومقتضى الحكمة ، وعلى ان جميع ما يصدر عنه من الأحكام يصدرعلى حسب العلم والحكمة ، لخير العباد ، وفق النظام العام الذى قدره

والأصل فى معنى سبح : نطق بسبحان الله أو غيرها مما يدل على التنزيه . فهل هذا هو المراد من قول الله سبحانه :

« سبح لله ما فى السموات والارض » ، او هو محمول على معنى آخر غير هذا ؟. للعلماء فى هذا خلاف ، ذهب بعضهم الى حمله على الحقيقة ، وأن كل موجود يسبح تسبيحا اختياريا بعبارة تدل على التسبيح ، واننا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الانسان ، والصادرة عن الملائكة ، ولا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الجماد وبعض انواع الحيوان . والدليل على ذلك قوله سبحانه : « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ، فقد اثبت سبحانه لكل شىء تسبيحا ، وثبت أننا نفقه بعضه ولا نفقه بعضه ، ولو كان هذا التسبيح اعتباريا يرجع الى الدلالة العقلية لما كان لهذا التقسيم وجه،فان جميع الناس متساوون فى امكان ادراك الدلالة العقلية ، وهى دلالة الموجودات على موجدها . واكثر الصوفية على هذا الرأى

وقد استبعد جمهور العلماء أن تكون للجمادات تسبيحات اختيارية لا نفقهها ، وأن تكون للحيوانات تسبيحات اختيارية لا نفهمها ، فصرفوا اللفظ عن ظاهره الى معنى آخر،فالأنفس والآفاق والسموات والأرض وما فيها من دقة الصنع ، والحكمة العالية فى الوضع ، والأسرار الباهرة فى الوجود ، والسنن التى يفنى الزمان قبل أن يتناولها الادراك « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ، هذا كله يدل دلالة قاطعة ، وان كانت متفاوتة حسب تفاوت العقول ودرجاتها،على إله منزه عن النقص فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ، اله واجب الوجود ، يشرق وجوده على جميع الموجودات ، ويشرق علمه على جميع المعلومات . وهذه الدلالة هى التسبيح المشار اليه بقول الله : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . ولما كان بعض الناس لم يدرك هذه الدلالة وأنكر الاله

والخالق ، صح ان يقول الله سبحانه : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أي لا يفقه بعضكم هذا التسبيح . وتذيل الآية بقوله سبحانه : « وهو العزيز » الذى يدل على القهر ، يشير الى ان هذا التسبيح قهرى ، والتسبيح القهرى هو تسبيح الدلالة

وينبغي ان يعلم ان من الدلالات ما هو اختيارى يقع بارادة الدال كدلالة النطق والاشارة والكتابة عند الانسان ، ومنها ما هو غير اختيارى كدلالة المصنوع على الصانع ، والمخلوق على الخالق . والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب ، اما الاولى فهى محتملة للصدق والكذب

وكل ما فى الوجود يدل دلالة عقلية على الله سبحانه ، وعلى تنزيهه ، يشترك فى ذلك الموجودات العاقلة وغير العاقلة ، وللموجودات العاقلة عبارات تدل على التنزيه ايضا ، لا خلاف فى هذا كله ، وانما الخلاف فى ان الجمادات والحيوانات غير الناطقة وما اشبه ذلك هل تسبح بعبارة خاصة بها تدل على تنزيه الله كما يسبح الانسان ، فيكون لها تسبيح اختيارى وتسبيح غير اختيارى ، او لا تسبح على هذه الصفة ، فلا يكون لها الا تسبيح غير اختيارى هو الدلالة ؟

وقد ذكر التسبيح فى هذه السورة بلفظ الماضى ، وكذلك جاء فى سورة الحشر وسورة الصف ، وذكر فى سورة الجمعة وسورة التغابن بلفظ المضارع . والماضى يدل على الحصول الى زمان الاخبار ، والمضارع يدل على الاستمرار فى الحال والاستقبال ، فاكتنفت الصيغة بقسميها جميع الازمنة ، ودل هذا على ان التسبيح يلازم الموجودات فى جميع الاوقات ، وان ذلك شأنها وديدنها ودأبها . ولفظ سبح يتعدى بنفسه ، وقد عدى هنا باللام ، ونظير ذلك نصحته ونصحت له ، زيدت اللام لتقوية وصل الفعل بالمفعول

« **وهو العزيز الحكيم** » : العزة : حالة تمنع صاحبها من ان **يغلب** ، مأخوذ من قولهم : ارض عزاز اى صلبة ، **والحكمة** : اصابة الحق بالعلم والعقل ، واذا أسندت الى الله سبحانه كان معناها معرفة الأشياء وايجادها على غاية الاحكام

* « لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » :

الملك بالضم : ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والملك ، فهو اخص من الملك بالكسر

يحيي ويميت : يخلق الحياة والموت ، يفيض الحياة على الميت فيحيا ، ويسلبها عنه فيموت

والقدير : البالغ القدرة

بعد ان بين الله سبحانه ان جميع الموجودات تنزهه عن كل نقص ، بين انه الغالب القاهر الذى لا ينازعه شيء ، اوجد كل شيء بقدرته ، واحسن صنعه بحكمته،لولا جوده ما وجد موجود ، ولولا علمه الواسع وحكمته لما وجد هذا النظام الذى تحار فيه العقول وتضل الأفهام « ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده » . فهو المتصرف فى السموات والأرض وما فيهما تصرف المالك الضابط ، المحكم فى تصرفه ، القادر القاهر فى ملكه ، ومن اظهر آثاره الاحياء والاماتة ، فهو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا ، وهو الذى يفيض على الأحياء الحياة ويسلبها عنهم فى الأوقات المقدرة حسب علمه . وهذا الذى صرح به من صفاته لازم للدلالة العقلية التى تدل بها الموجودات على تسبيحه ، ولذلك جاء

بها عقب التسبيح ، وستجيء صفات اخرى فى الآيات الآتية

* « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » :

الاول : السابق فى الوجود على جميع الموجودات . **والآخر** : الذى يبقى بعد فناء جميع الموجودات . اما انه أول بهذا المعنى فامره ظاهر ، لأنه واجب الوجود ، وجوده مقتضى ذاته ، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالك فى ذاته يحتاج فى وجوده الى اشراق الوجود الحق ، وليس هناك ما يسبق الوجود الحق ، ولا ما يساوي الوجود الحق . واما انه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق ، وأكثر العلماء على خلافه ، فمن الناس من ذهب الى ان كل شيء يفنى ويبقى الله وحده « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ، « كل شيء هالك الا وجهه » ، والله تعالى يوصل الثواب الى اهل الثواب ، والعقاب الى اهل العقاب ، ثم يفنى الجنة واهلها ، والنار واهلها ، والعرش والكرسى ، والملك والفلك ، ولا يبقى مع الله شيء أبدا ، ولا يعيد بعد ذلك شيئا أبدا ، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه ابد الآباد . وهذا المذهب ، ان صح هو تفسير الآخر . ومن الناس من جرى على هذا الراى وخالف فى الاعادة ، فقال ان الله بعد ان يفنى كل شيء ويبقى وحده وبذلك يكون آخرا (١) يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها ابدا ، وقالوا : مما لا شبهة فيه امكان بقاء العالم . وهناك اجماع من المسلمين على أبدية

---

(١) وعليه تكون الآخرية فى وقت ما ، وليست ابدية كما هى على الراى الاول

الجنة والنار ، فالآخرية التى وصف الله بها نفسه لا تتحقق الا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا . وابدية الجنة والنار المجمع عليها لا تتحقق الا اذا أعيدت الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، وبقى الكل بعد ذلك أبد الآباد

وهناك آراء فى تفسير الآخر غير منظور فيها الى فناء الجنة وأهلها والنار وأهلها ، تدور كلها على اعتبار الأولية ذاتية كما سبق ، والآخرية اعتبارية . فمنهـا أنه وصف نفسه بأن المرجع والمصير اليه ، فقال : « والى الله ترجع الأمور » ، وفى آية « واليه المصير » . ومنها أن أول ما أدركه الانسان ويدركه هو آثار الله سبحانه ، وبهذه الآثار عرف الله ، فهذه الموجودات أدلة عند الانسان فى الحس ، ومنهـا توصل بالنظر والدليل الى معرفة الله ، فالله سبحانه هو الآخر عند العقل

وقال حجة الاسلام : الاول أن يكون أولا بالاضافة الى شىء ، والآخر يكون آخرا بالاضافة الى شىء ، ولا يتصور ان يكون الشىء الواحد من جهة واحدة أولا وآخرا بالاضافة الى شىء واحد ، فاذا نظرت الى سلسلة الموجودات المترتبة فالله سبحانه بالاضافة اليها أول ، لانه هو الموجود بذاته وجميع الموجودات استفادت وجودها منه ، واذا لاحظت ترتيب السلوك فى المعرفة وراقبت منازل السالـكين فهو تعالى آخر ما ترتقى اليه درجات العارفين ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهى مرقاة الى معرفته ، ومعرفته هى المنزل الأقصى ، سبحانه ، فهو أول بالاضافة الى الوجود ، وآخر بالاضافة الى السلوك ، سبحانه وتعالى اليه المرجع واليـه المصير . والاول والآخر لا يقـالان فى صفـات الله سبحانه الا مزدوجين ، وكذلك الظاهر والباطن ، وسيأتى بيانهما

« والظاهر والباطن » : ادراك كنه الموجودات الممكنة بالعقل

عسير أو مستحيل ، فما بالك بادراك الذات الالهية ، وقد قيل ان ادراكها هو العجز عن ادراكها ؟ فوجود الله سبحانه تضافرت الأدلة العقلية عليه ، واجمع عليه الناس ، الا من أعمى الله بصائرهم . وقد وصفه العلماء الذين لا يعترفون بدين بما هو لائق بذاته ، وحقيق بجلاله ، وبما نكرره نحن اليوم ونتدارسه . ويكاد يكون الاعتراف بالاله الخالق فطريا ضروريا فى غير حاجة الى الدليل . وكنه ذات الاله لا يمكن الوصول اليها بالعقل ، كما انه لا يمكن ادراك الله أيضا من طريق الحواس ، فاذا نظرت اليه من خزانة العقل فوجوده ظاهر ، واذا نظرت اليه من خزانة الحواس فوجوده باطن ، وكذلك هو باطن فى خزانة العقل من جهة الكنه ، فالله ظاهر الوجود ان طلب بالعقل ، والله باطن ان طلب كنهه بالعقل ، أو طلب بالحواس

« **وهو بكل شىء عليم** » : لا يغيب عن علمه شىء ، وهذا الصنع الدقيق فى العالم العلوى والسفلى شاهد على ان الذى أبدعه محيط به

* « هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » :

يقال : **استوى** فلان على عمالته ، ومتى عدى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء ، كقوله : « الرحمن على العرش استوى » ، واذا عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء اليه اما بالذات أو بالتدبير ، مثل « ثم استوى الى السماء وهى دخان »

العرش : يقال : عرشت الكرم وعرشته ، اذا جعلت له

كهيئة سقف . وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ، ويكنى به عن العز والسلطان والملكة

خلق السموات والارض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته وعلمه الواسع ، فيه آيات بينات يبهر الناظرين بعض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على ما لم يعرف ، وهو لا نهاية له ؟

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها من بعض بعدا شاسعا ، ولكل طائفة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف الينا ما يسمى النظام الشمسى ، منسوبا الى الشمس التى يفيض نورها فيكون سببا للحياة فى الارض . وكوكب الشمس يتبعه كواكب مختلفة فى ابعادها ومقاديرها ، وقد استقر كل كوكب فى موضعه ومداره ، وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب ، كل ذلك بسنن الهية أوجدها القادر الحكيم ، ولولا هذه السنن لتفلتت هذه الكواكب السابحة ، وصدم بعضها بعضا ، وهلك العالم

وقد قلنا ان المراد بالسموات والارض هو الموجودات ، وقد تطلق السموات على ما دون العرش من العالم العلوى ، وبخاصة اذا وصفت بالسبع

وفى هذه الآية بين الله سبحانه خلق السموات والارض فى ستة أيام ، وقال فى آية أخرى : « قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، واوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ،

ذلك تقدير العزيز العليم » . ففى هذه الآية الاخيرة تفصيل لما أجمل فى آية الحديد ، حيث جعل للسموات يومين ، وجعل لخلق الارض يومين ، ثم أوجد الرواسى فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى يومين ، فيكون مجموع ما أخذته الارض وما فيها أربعة أيام ، وذلك قوله : « فى اربعة أيام » ، أى فعل ذلك كله فى اربعة أيام ، وجملة ما أخذته السماء يومين : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، واوحى فى كل سماء أمرها »

ولا يعقل ان تكون الايام الستة فى هذه الآية من جنس أيامنا ، فان هذه الايام وجدت بعد خلق الارض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التى يعلمها هو ، وقد قال فى يوم القيامة : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، وقال فى آية أخرى : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد تكون السنة سنة نورية ، فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ، والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم » . وقد روى عن ابى هريرة ما يدل على ان الايام من أيامنا ، وتكلم فيه البخارى وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية ابى هريرة عن كعب الاحبار ، ولم يجعلوه مرفوعا. والذى قاله البخارى هو الذى يجب التعويل عليه . وفى الاسرائيليات شىء كثير ، وفيها بيان لما صنع فىأيام الأسبوع، ولو كانت هناك أية فائدة فى بيان جنس الأيام وفى بيان ما صنع فى الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة انما هى فى الخلق وفى جعله أطوارا . وقد أرشد الله سبحانه فى آية فصلت الى انه استوى الى السماء وهى دخان ، وقال فى سورة الانبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء

كل شيء حي ، أفلا يؤمنون » . وهذا يدل على أن السموات والارض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ، وهي مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها » ، ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحول جزء منها الى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسي ، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التى مرت على الارض : الدخان ، ثم الماء ، ثم اليابسة ، ثم الأحياء والأقوات

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والارض فى ستة أطوار يعلمها هو ، ونؤمن بأن السموات والارض كانتا رتقا ففتقهما ، ونؤمن بأن خلق السموات فى يومين ، وخلق الارض وما فيها فى اربعة ، ونؤمن بأن كل شيء حى فمن الماء خلقه ، وأن كل شيء خلقه بقدر ، وما أنزل شيئا الا بقدر معلوم . واذا كشف العلماء عن تفاصيل فى مادة الخلق وأطواره لا تنافى ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ، فلا يجوز لنا ان نرد به شيئا من القرآن

« ثم استوى » : سئل مالك عن قوله : « استوى على العرش » كيف استوى ؟ فوجد وجدا شديدا واخذته الرحضاء ، ولما سرى عنه قال : الكيف غيرمعقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج . وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وكيف ، عنه مرفوع ، وانت رجل سوء صاحب بدعة

ونحن نؤمن بأنه استوى على العرش كما وصف نفسه . وعرشه لا يعلمه البشر الا بالاسم ، وليس حاملا له كما يتوهمه الناس ، وتعالى الله عن ان يكون محمولا أو فى جهة أو حيز ، وتعالى الله عن سمات المخلوقين : « ليس كمثله

شيء وهو السميع البصير » . والقرآن يدل على ان العرش لم يزل مستعليا منذ وجد ، بدليل قوله : « وكان عرشه على الماء » . وأقرب ما يقال فى الاستواء ، عند ارادة التأويل ، انه التصرف فى الموجودات والتمكن منه مع عدم المنازع والمغالب ، عبر عنه بما يفهمه الناس من استواء الملك على العرش وتمكنه من التصرف فى شؤون الملك . وقد نزل القرآن على أساليب العرب ومناحيها ، فمنه المجاز ومنه الكناية ، والعقل هو الذى يصرف الالفاظ عن ظاهرها الى ما يليق بجلاله ، ولا يجوز أن يتحكم اولئك الجهلة فى تفسير القرآن والحديث النبوى ويحملوا الألفاظ على ظاهرها فيوقعوا الناس فى التجسيم ولوازم التجسيم . ولولا طائفة من علماء السلف تحقق فيهم الذوق العربى ففهموا دقائق العربية وأسرارها ، ووجد عندهم العقل الراجح والعلم الناضج فى معرفة الموجودات وطرق الاستدلال ، لضل الناس فى فهم القرآن ومناحيه واسراره ، ودخل فى العقائد ما لا يريده الله ولا يريده رسوله من الزيغ ، ودخل فى التشريع ما لا يريده الله من مجافاة مصالح العباد

* « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » :

الولوج : الدخول فى مضيق . **والعروج** : ذهاب فى صعود. ولفظة « مع » تقتضى الاجتماع فى المكان أو الزمان او الرتبة ، وقد تقتضى معنى النصرة ، فيكون ما يضاف اليه

لفظ مع هو المنصور ، نحو « ان الله معنا » ، « ان الله مع الذين اتقوا »

ويقال **البصر** للجارحة المعروفة ، ولقوة الابصار التى فيها ، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة ، ويقال لها بصر أيضا

يعلم الله سبحانه كل ما هو فى الارض من جامد وسائل ، وكل ما يخرج منها من نبات ، وكل ما هو عليها من حيوان وانسان ، ويعلم كل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ورحمة وعذاب ، وكل ما يصعد اليها من دعاء وملائكة ، ويعلم جميع المخلوقات ما خفى وما ظهر ، وهو مع جميع المخلوقات فى كل لحظة ، ولو لم يكن معها فى كل لحظة لفنيت ، فانه موجدها ، وبجوده اشرق وجوده عليها ، وهو بصير بأعمال العباد ، فانه قدرها وارادها قبل أن توجد ، وقد اقدرهم عليها . وقد اجمعت الامة على تأويل قوله سبحانه : « وهو معكم اينما كنتم » ونفوا ان يكون المراد بها المعية الذاتية ، وجعلوها من قبيل التمثيل لاحاطة العلم ، والتصوير لعدم خروجهم عن علمه اينما كانوا . وعن ابن عباس : « وهو معكم » ، اى عالم بكم . وهذا الاجماع منهم اجماع على وجوب تأويل كل ما أوهم ظاهره تشبيه الله بالمخلوقات

* « لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » :

له السلطان المطلق ، والحكم النافذ فى السموات والارض ، واليه يصير الخلق فيقضى بينهم بحكمه

* « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » :

قال عكرمة : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » : قصر هذا فى طول هذا وطول هذا فى قصر هذا . ومعناه أنه يدخل ما نقص من ساعات الليل فى النهار فيجعله زائدا فى ساعاته ، ويدخل مانقص من ساعات النهار فى الليل فيجعله زائدا فى ساعاته . وفى هذا تنبيه على آثار نعمته وآثار قدرته . واختلاف الليل والنهار وطول هذا بقصر ذاك يجرى بحسبان مطرد فى جميع البلدان والأقطار ، ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع الطول والعرض ، وهذا الاختلاف اثر من آثار مقابلة الارض للشمس وحركتها بازائها . وفى اختلاف الفصول والليل والنهار منافع للناس واضحة بينة ، وفيها دلائل على قدرة الاله ، ووحدة هذا النظام البديع المطرد ، والناس جميعهم يعرفون منافع هذا كله ، وبعضهم يعرف منافعه ويعرف أسبابه . وقد أرشد الله الى ذلك كله بقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا »

« وهو عليم بذات الصدور » : اى بالنيات الخافية فى الصدور ، وبكل ما يهجس فيها من الخواطر

* « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » :

الخلافة : النيابة عن الغير اما لغيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه . ويقال : خلف فلان فلانا : قام بالأمر عنه ، اما معه أو بعده

والأجر : ما يعود على العامل من ثواب العمل ، دنيويا كان او اخرويا . ويقال لما كان عن عقد او ما يجرى مجرى العقد ، ولا يقال الا فى النفع

بعد أن بين الله سبحانه انواعا من الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته وحكمته ، وانه لا يصدر منه الا ما هو خير ومصلحة ، توجه الى العباد وأمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبالانفاق فى سبيله . والخطاب موجه الى الناس جميعهم من آمن منهم ومن لم يؤمن ، أما من آمن فيطلب الثبات على الايمان وعدم الزيغ والنفاق ، واما من لم يؤمن فيطلب الاقرار بالله ورسوله ثم الانفاق ، والمخاطبون مختلفون ، والخطاب يتوجه الى كل واحد بما يليق به ، كما يقال لأهل بلد من البلاد : صلوا وأنفقوا وأوفوا الكيل ، فيفهم كل واحد من الخطاب ما هو لائق به ، فمن كان يصلى ثابر على الصلاة ، ومن كان لا يصلى صلى ، ومن كان يخسر فى الكيل أوفى ، وهكذا

طلب الله سبحانه الى عباده الانفاق مما بأيديهم فى سبيل البر ، ونبههم الى ان الأموال التى فى ايديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هى أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وخولهم الاستمتاع بها ، ومكنهم من التصرف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، والى أن هذه الأموال انتهت اليهم عن غيرهم ، وستنتقل عنهم الى غيرهم ، فهم خلفاء عمن قبلهم وسيخلفهم من بعدهم ، واذا كان المال مال الله تداولته الأيدى فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخره الانسان عند الله ليكون له اجره يوم الحساب من ان يخرج

الى الوارث ، او يخرج بجائحة من الجوائح . وفى الحديث الشريف « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك الا ما اكلت فافنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » !

« فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » : كان الظاهر أن يقال : آمنوا وانفقوا تؤجروا ، لكنه عدل عن الظاهر الى هذه الجملة الاسمية ، واعيد ذكر الايمان والانفاق ، وفخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، كل هذا للدلالة على فخامة الأجر واستمراره ، وتعظيم الايمان والانفاق . وقد سمى الله ما يعود على فاعل الخير أجرا ، لأن الله سبحانه وعد الصالحين أن يجزيهم جزاء حسنا ، فكأن هناك تعاقدا بين العبد وربه ، واتفاقا على أن يوفى جزاء عمله

* « وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » :

« لا تؤمنون » : حال من معنى الفعل فى مالكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى ما تصنع قائما

« والرسول يدعوكم » : جملة حالية ايضا ، فهما حالان متداخلتان . والمعنى : مالكم كافرين بالله والرسول يدعوكم ويتلو عليكم الآيات ويقيم عليكم البراهين ، وقد أخذ الله من قبل عليكم الميثاق بالايمان حين ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر ، وازاح عنكم العلل ؟ لا عذر مع هذا كله ، فان كنتم مستعدين للايمان فقد وجب ، وهذا وقته ، والأسباب متوافرة ، والموانع غير قائمة . فقوله : « ان كنتم مؤمنين » شرط جوابه فهذا وقته او فقد وجب

بين الله سبحانه ان لا عذر لأحد لأن الأدلة السمعية قائمة هي دعوة الرسول وآياته ، والأدلة العقلية قائمة هي دلائل الآفاق والأنفس ، ووجود العقل المستعد للنظر والاستدلال . وحمل بعض المفسرين الميثاق على ما هو مشار اليه بقوله سبحانه : « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا بلى » . وهذا الحمل غير لائق لأن الميثاق على هذا النحو (١) لم يعرف الا من جهة الرسول ، وقبل تصديق الرسول والايمان به لا يكون قوله سببا فى الزامهم ، وانما الذى هو سبب الالزام ــ كما نفهم ــ هو الدليل العقلى القائم المشاهد بالحواس ، وينصرف العقل فيه بوجوه النظر والاستدلال

* « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » :

الآية : العلامة الظاهرة . وحقيقتها شيء ظاهر ملازم لشيء آخر غير ظاهر ظهوره ، فاذا ادرك الظاهر منهما علم انه ادرك الآخر . مثلا : اذا علم شخص شيئا مصنوعا علم انه لا بد له من صانع

والبينة : الدلالة الواضحة عقلية او حسية . والبيان قسمان : بيان بالتنجيز وهو بيان الأشياء التى تدل على حال من الأحوال من آثار الصنع ، وبيان بالاختيار بالنطق او بالاشارة او بالكتابة وما اشبه ذلك

والظلمة : عدم النور ، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق ، كما يعبر بالنور عن اضدادها

---

(١) هذا جريا على ان الميثاق فى الآية ميثاق خطاب لا ميثاق الادلة . وهما رأيان للمفسرين

والرافة والرحمة : واحد ، وهي رقة تقتضي الاحسان الى المرحوم وتستعمل فى الرقة والاحسان المجـردين ، واذا وصف الله بها فليس معناها الا الاحسان والانعام

بعد ان بين الله سبحانه انه لا عذر فى ترك الايمان لوجود الميثاق ودعوة الرسول ، بين فى هذه الاية ان دعوة الرسول موجهة اليهم من قبل الله سبحانه رافة بهم ورحمة ، فهو الذى نزل على عبده الآيات البينات المفصلات الواضحات ليخرجهم من ظلمة الكفر والجهل الى نور الايمان والعلم ، وبذلك قطع العذر ببعث الرسل ، واقام الحجة على خلقه

* « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ . لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا . وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » :

الوراثة : انتقال قنية الى شخص من غيره من غير قيد ولا ما يجري مجرى العقد . وقد وصف الله نفسه بالوارث لان مصير الأشياء جميعها اليه سبحانه

الحسنى : الحسن : كل مبهج مرغوب فيـه . والحسنة نعمـة تنال الانسان وتسره فى نفسه أو بدنه او امواله . والحسن يقال فى الأعيان والأحداث والحسنى تقال فىالأحداث

الخبير : الخبرة : معرفة بواطن الامور ، والخبر : العلم

بالأشياء من جهة الخبر . وإذا قيل : الله خبير بما تعملون ، صح أن يكون معناه : الله عالم بأخباركم ، وأن يكون معناه : عالم ببواطن اموركم

ومعنى الآيات : اى غرض لكم فى ترك الانفاق فى سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السموات والارض وما فيهن ، والأموال صائرة اليه ؟ فاذا لم تنفقوها فى سبيله ذهبت منكم بعد موتكم بغير مقابل فلم تنتفعوا منها بشيء ، أما اذا انفقتموها فى سبيله فسينالكم الحظ والأجر ، وتكون مدخرة عنده . وهذا ندب الى الانفاق ، وحث شديد عليه ، وتقريع على تركه ، وكأنه يقول : انه لا يتصف بهذا عاقل ولايرضاه ، لأن تصرف العقلاء يجب أن يكون له باعث ومصلحة ، ولا مصلحة فى ترك الانفاق ، بل المصلحة فى الانفاق لنيل الأجر. وهذه الآية اقوى فى الحث على الانفاق من الآية السابقة

وقد كان هناك قتالان احدهما أفضل من الآخر ، وكان هناك نفقتان احداهما أفضل من الاخرى : كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد فتح مكة ، فالذين انفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعظم درجة من الذين انفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة الى النصرة بالأنفس والأموال ، لقلة عدد المسلمين وفقرهم ، وكثرة أعدائهم ويسرهم ، ولأنه لم يكن اذ ذاك غنائم تنتظر ، ولا كان الوثوق بالظفر ، فكانت النفقة اشق على النفس ، وكانت الحاجة اليها ملحة ، وكذلك شأن القتال ، فالنفقة والقتال قبل الفتح من أعظم الأدلة على الايمان والاخلاص ، وعلى انهما ابتغى بهما وجه الله . وهذا معنى قوله سبحانه : « لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل » اى لا يستوى هو ومن انفق بعد الفتح وقاتل . وقد دل على هذا قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا »

نفى الله استواء الفريقين فى الأجر ، ولكنه اثبت لهما معا الحسنى ، وهى المثوبة فى الدار الآخرة ، وهى الجنة ورضوان الله ، سبحانه وهو خبير بأعمال العباد ظاهرها وباطنها ، وعالم بأخبارهم ، وسيجازى على مقدار الاعمال وما يحيط بها من الملابسات ، وما يدفع اليها من الغايات والنيات

* «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» :

القرض : ما يدفع من المال على شرط رده · واذا وصف الله بالكرم فمعناه احسانه وانعامه المتظاهران · واذا وصف الانسان بالكرم فهو اسم للافعال والاخلاق المحمودة التى تظهر عليه . ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه . وكل شىء شرف فى بابه يقال له كريم

سمى الله سبحانه قرضا ما ينفق فى سبيله وفى وجوه الخير ابتغاء مرضاته · والقرض ـ كما سبق بيانه ـ مايعطى على شرط الرد ، ففى ذلك دلالة على أنه سيرده الى المنفق · ثم ذكر صراحة أنه سيعطيه أجرا كريما ، وأنه سيضاعف هذا الأجر الكريم · ولا يوجد ما هو أبلغ فى الحث على الصدقة والاحسان من هذا التعبير · يقول الله سبحانه : هذه يدى بسطتها أريد قرضا سأرده وسأجزى عليه أجرا كريما مضاعفا، فمن ذا الذى يسمع هذا ولا يبادر الى الاجابة ويتمم عقد القرض مع الله ؟ فالجملة مسوقة مساق التمثيل، وأثرها ظاهر فى النفس ، وهى أبلغ من كل عبارة تقال في الحث على الصدقة · وقد ذكروا أن يهوديا قال عند نزول هذه الآية : ما استقرض اله محمد حتى افتقر ! فلطمه ابو بكر ، فشكا اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقال لأبى بكر : ما أردت بهذا ؟ قال : ما ملكت نفسى أن لطمته ، ولم يقلها اليهودى الا استهزاء وحمقا وجهلا

وقد ذكروا فى شروط القرض الحسن وجوها : أن يكون حلالا ، فان الله طيب لايقبل الا الطيب ، وأن لا يكون رديئا ، وأن يعطى للأحوج فالاحوج ، وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها المن والأذى ، وأن يقصد بها وجه الله دون الرياء ، وأن لا يستكثرها وان كانت كثيرة ، وأن تكون من المال المحبوب عنده ، وأن لا يرى لنفسه عزة الغني ويرى للفقير ذلة الفقر، وأن يكون الانفاق فى حال رجاء الحياة وطول الأمل

وقد أكثر الله سبحانه فى القرآن من الحث على الصدقات بأساليب مختلفة ، وفى سورة البقرة طائفة من الآيات نورد بعضها هنا تتمة لموضوع الصدقة :

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم » ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » ، « يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ، « ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » ، « وما تنفقوا من خير فلانفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون »

ففى هذه الآيات ترغيب فى النفقة ، وفيها شروط القرض الحسن التى مر ذكرها • وهناك أحاديث عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم مرغبة فى الصدقة . وكل هذا يدل على روح الاسلام وحبه للتعاون والتناصر ، تحقيقا للوحدة التى يبتغيها ، وتزهيدا فى المال اذا وجدت مصارفه وبان موضع الحق فيه . وهذا يدل على قيمة المال ، وعلى أن له قدرا عظيما ، فانه وسيلة الى تحصيل الأجر العظيم من الله ، ووسيلة الى أن يعقد المؤمن مع الله قروضا، وهو وسيلة فى اعزاز البلاد واعزاز الدين اذا ما تعرض المسلم للجهاد، فلا يجوز التزهيد فى المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه، وانما يكون التزهيد فيه على معنى عدم حبه الحب الموجب لادخاره ، وكيف يزهد فى المال مع أن الله وعد منفقه بالاجر العظيم ، وبالأمن والمسرة ، حيث قال : « لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها ، فصانوا بلادهم وأنفسهم ، وأيدوا الوحدة الاسلامية، والتضامن بين أفراد الأمة ، وقويت الروابط بينهم ، فلم يحقد الفقراء على الأغنياء ، ولم ينظر الأغنياء الى الفقراء نظر المدل الفخور . ثم نسى ذلك وقست القلوب ، فظلم الناس فى جمع المال ، وظلموا فى ادخاره . ولا سبيل الا بالرجوع الى الله وكتابه ، ولا فلاح الا بالايمان والتقوى ، والانفاق فى سبيل الله

* « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » :

السعي : المشي السريع دون العدو . **وبشرته** : أخبرته بخبر سار بسط بشرة وجهه . ويقال للخبر السار بشارة وبشرى . **والفوز** : الظفر بالخير مع حصول السلامة

بعد أن رغب الله سبحانه في الانفـــاق ، وحث عليه ، ووعد بالأجر الكريم عليه ، وبالمضاعفة ، بين أن ذلك الأجر المضاعف يكون يوم القيامة . وقد اختلف العلماء في تفسير ذلك النور : فعن ابن مسعود وقتادة : هو ضياء حقيقي . وقال بعضهم : هو نور الهداية الى الجنـــة ، ونور الاعمال الصالحة والمعارف الحقة

وقوله تعالى : ((**وبايمانهم**)) هو خبر لمبتـــدأ محذوف ، والمعنى: يسعى هداهم بين أيديهم، وبأيمانهم كتبهم وسجل أعمالهم ، وهي في ذلك نظير قوله تعالى : ((فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه)) . ونور البصيرة والمعرفة اذ ذاك هو الأحق بأن يســـمى نورا ، ومقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف ، والله سبحانه هو النور الحقيقي ، والنور المشتق من نوره هو نور الهداية والمعرفة . ولو كان المراد الضياء الحقيقي لما خص بالسعي بين الأيدي ، بل كان يعم جميع الجهـــات ، والتخصيص بالسعي بين الأيدي دليل على أنه عنى به معنى آخر

وقوله : « **بشراكم اليوم جنات** » : أى يقال للمؤمنين في ذلك اليوم : ما تبشرون به اليوم هو جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا تتحولون عنها ، وهـــذا الخلود في الجنات هو الظفر والنجح العظيم

* ((يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ. قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً.

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْوَاكُمُ النَّارُ، هِيَ مَوْلَاكُمْ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » :

النفاق : الدخول فى الشرع من باب والخروج عنه من باب آخر

انظرونا : قرأ عامة قراء المدينة والبصرة وبعض اهل الكوفة : انظرونا موصولة ، بمعنى انتظرونا ، وعامة اهل الكوفة : أنظرونا مقطوعة الألف من أنظرت • وذكر الفراء أن العرب تقول : أنظرنى وهم يريدون انتظرنى قليلا •
قال ابن جرير : والصواب من ذلك قراءة الوصل لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب اذا أريد به انتظرنا • وعلى قراءة الوصل يصح أن يكون المعنى : انظروا الينا

والقبس : هو المتناول من الشعلة ، والاقتباس : طلب ذلك ، ويستعار لطلب الهداية

التمسوا : أى اطلبوا • والمس : ادراك بظاهر البشرة كاللمس ، ويعبر به عن الطلب ، ومنه قوله : وألمسه فلا أجده ، وقول الله سبحانه : « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا »

وأصل **الفتن** : ادخال الذهب النـــار لتظهر جودته من رداءته ، واســـتعمل فى ادخال الناس النار ، ويستعمل أيضا فيما يحصل منه العذاب، ومنه «ألا فى الفتنة سقطوا» . ويستعمل استعمال البلاء فيما يدفع اليه الانسان من شدة

والتربص : الانتظار بالشىء ، مثل تربص غلاء السلعة أو رخصها ، وتربص زوال الشىء أو حصوله . ويقال : رابنى ريبا وأرابنى ارابة . **والريب** : أن تتـــوهم بالشىء أمرا ما فينكشف عما تتوهمه . وسمى ريب المنون ريبا مع أنه لا شك فيه باعتبار الشك فى وقته

والغرة : غفلة فى اليقظة ، يقال : غررت فلانا اذا أصبت غرته ونلت منه ما تريد . وغر الثوب أثر كسره ، ومنه قيل: اطوه على غره . وغره كذا غرورا كأنما طواه على غرة

والتمنى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها ، قد يكون عن ظن ، وقد يكون عن روية وبناء على أصل ، وأكثــره ما كان عن تخمين ، فصار الكذب له أملك . وأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له

والفدية والفداء : حفظ الانسان من النائبة بما يبذله عنه

والمأوى : اسم للمكان الذى يؤوى اليه أى ينضم اليه . ويقال : **صار** الى كذا أى انتهى اليه فى تنقله وحركته

بعد أن صور الله حالة المؤمنين يوم القيـــامة ، وبين أن نورهم يسعى بين أيديهم ، وأنهم يبشرون بالخلود فى الجنة، صور فى هذه الآيات حال المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام من باب وخرجوا من باب ، فهم فى الظاهر مع المؤمنين وفى الباطن مع الكافرين ، ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : « ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا»

وقد روى عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة اذ بعث

الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا على الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم ، فاظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : انظرونا نقتبس من نوركم فانا كنا معكم فى الدين ، قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا النور هناك ، فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار

وهذا التصوير ظاهر على رأى القائلين بأن النور نور حقيقى هو ضياء ، وعلى أن معنى انظرونا أمهلونا حتى نسير معكم فى نوركم فانا لا نرى حولنا الا ظلمات لا نستطيع السير فيها ، ويكون الاقتباس واضحا أيضا ، لأنه تناول النور من الشعلة

أما على الرأى القائل بأن النور نور الهداية فيكون المعنى: انتظرونا نسر فى هديكم معكم ، ويكون الاقتباس معناه الانتفاع بالهداية ، ويكون معنى قول المؤمنين لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا : ارجعوا فاطلبوا الهداية من خلفكم لا من عندنا ، اما من الدنيا بتحصيل الاعمال الصالحة التى ثمرتها الهداية يوم القيامة ، واما من الموقف المظلم قبل أن يشع نور الهداية للمؤمنين ، وكلا الأمرين مستحيل ، لأن الرجوع الى الدنيا غير ميسور ، وحصول الهداية من الموقف المظلم غير ميسور

وعلى كل حال فتفسير انظرونا بانظروا الينا فانكم اذا نظرتم الينا وقع نوركم أمامنا فأمكن من السير، غير واضح، لأنهم اذا نظروا اليهم وتقابلوا كيف يمكن السير ؟

وسواء أكان النور ضياء أم كان هداية ، فقد بين الله سبحانه أنه يفصل فى ذلك اليوم بين الفريقين بحاجز له باب باطنه من قبل المؤمنين رحمة وسلام ، وظاهره من قبل

المنافقين عذاب ، وأن المنافقين ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ونقيم الشعائر ، فلم تمتازون علينا وتخصون بهذه النعم ؟ فيقول لهم المؤمنون: حقا كنتم معنا ولكنكم أوقعتم أنفسكم فى البلاء وعملتم ما هو سبب في دخول النار ، وتربصتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف أمرنا ، ويهون شأننا ، ويزول من الوجود ظلنا ، وشككتم في الدين ، وغرتكم الأماني التى كنتم تقدرونها وتمنون أنفسكم بها من زوال الاسلام وانعكاس أمر المسلمين ، ظللتم على هذه الحال حتى جاء أمر الله وهلكتم ، وفارقتم الدنيا ، وعجزتم عن اكتساب صالحات الأعمال ، وغركم الشيطان وزين لكم النفاق بما أوقع فى صدوركم من الأماني ، وبما لوح لكم من عفو الله ، فاليوم لا سبيل الى النجاة ، ولا سبيل الى دفع الفدية والبدل الذى يؤخذ منكم للنجاة من النار ، النار أولى وأحق بكم ، والنار بئس المصير الذى انتهيتم اليه بعد طول التنقل . وعلى هذا فكلمة مولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى ، لا أنه مشتق منه . وقد يكون معنى المولى الناصر ، أى لا ناصر لكم غير النار

هذا التصوير لحال المؤمنين وحال المنافقين ، مما يبعث الرغبة الى الانفاق فى نفس المؤمن ، ليزيد نوره في ذلك اليوم ، ويكون مع المؤمنين الذين يسيرون الى الجنة كما يسير البرق الخاطف ولا تنالهم أهوال يوم القيامة ، ولا يكون مع المنافقين الذين يتخبطون فى الظلمات ، ويقتبسون النور فلا يمكنون منه، ويتهكم عليهم المؤمنون بقولهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا

وقد رغب الله فيما سبق من الآيات فى الانفاق على وجوه شتى : أولها : وعد الذين أنفقوا بأن لهم أجرا كبيرا ، وثانيها : تنبيههم الى ان هذه الأموال ليست أموالهم بل هم وكلاء

مستخلفون فى التصرف فيها ، وثالثها : أنها ستذهب عنهم وتصير الى الله وارث السموات والارض ، ورابعها : هـذا التصوير القوى لحال المؤمنين وحال المنافقين

* « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » :

آنى الشىء يأنى أنى اذا جاء وقته . **والخشوع** : الضراعة والانقياد ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، وأكثر ما تستعمل الضراعة فيما يوجد فى القلب ، ولذلك قيل : اذا ضرع القلب خشعت الجوارح

والحق : ما دعا اليه العقل ، وهو الذى من عمل به نجا ، ومن عمل بخلافه هلك ، وهو مطلوب كل عاقل فى نظره وان أخطأ طريقه

وذكر الله : اما أن يكون من اضافة المصدر الى الفاعل ، فيكون الذكر وما نزل من الحق شيئا واحدا هو القرآن ، وللقرآن صفتان : صفة أنه ذكر وموعظة ، وصفة أنه حق نزل من عند الله ، واما أن يكون من اضافة المصدر الى المفعول ، فيكون ذكر الله تذكر الله ، وما نزل من الحق هو القرآن . ونظير ذلك : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »

وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديدا ، فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وعن ابن عباس رضى

الله عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن • وعن أحمد عن أبى الحوارى قال : بينا أنا فى بعض طرقات البصرة اذ سمعت صعقة ، فاقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشيا عليه ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : رجل حاضر القلب سمع آية من كتاب الله فخر مغشيا عليه ، فقلت : ما هي ؟ فقيل : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ••• »

وهناك قصص كثيرة تدل على مقدار تاثير القرآن فى قلوب سامعيه ، وهذا التأثير يتبع حضور القلب وفهم معانيه وتذوق اللغة العربية وأساليبها • وللذين يتدبرون القرآن أحوال عجيبة ، وأسرار تهبط عليهم من فيض الله وجوده• أما الذين يتلون القرآن للتبرك بتلاوته ولاستخراج ما فيه من قواعد اللغة العربية ووجوه الاعجاز ، فهؤلاء لا ينالهم من جود الله الا النزر اليسير

وعن الأصمعى : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتل على ، فتلوت : والذاريات ، فلما بلغت قوله سبحانه : « وفى السماء رزقكم » قال : حسبك ، فقام الى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد الى سيفه وقوسه فكسرهما ، وولى • فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق، فالتفت فاذا أنا بالاعرابى قد نحل واصفر ، فسلم على واستقرأ السورة، فلما تلوت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا! ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت « فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ، فصاح وقال : يا سبحان الله ! من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ! لم يصدقوه بقوله حتى ألجاوه الى اليمين ! قالها ثلاثا، وخرجت معها نفسه

والمعنى : ألم يجيء الوقت الذي تخشع فيه القلوب وتلين ضارعة الى الله سبحانه عند سماع القرآن ، وفيـــه الذكر والعظة، وقد نزل بالحق من عند الله سبحانه. وتنقاد الجوارح لأوامره ونواهيه ، وتعكف على العمل بما فيه ، وتتـدبر أسراره وتحافظ عليه ، ولا تزيد ولا تبتدع كما فعلت الامم من قبل ، حيث كانوا أول أمرهم يحول الحق بينهم وبين شهواتهم ، وكانوا اذا سمعوا التوراة أو الانجيل خشعت قلوبهم لله ورقت ، ثم لما طال عليهم الزمان من وقت تنزيل الكتب وبعث الرســـل غلبهم الجفاء والقســـوة ، فاختلفوا وأحدثوا ما أحدثوه من البدع والتحريف ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وحدثت الفرق ، وانتهى الأمر بكثير منهم الى الفسق والخـروج عن الدين ، ورفض ما جاء عـلى لســـان أنبيائهم . هكذا نبهنا الله سبحانه لنعتبر بأحوال الماضين.

وقد نبهنا الى ظاهرة نفسية من ظواهر الأنفس ، فان طول الأمد على الحوادث يخلق جدتها ، ويذهب رواءها، ويضعف التأمل فيها والحماس لأجلها ، والف الشيء يورث التهاون به ، ولذلك يحتـاج الدين دائما الى مذكر ومجدد ، وليس من وظيفة المجدد أن يحدث في الدين جديدا ، وانما وظيفته أن يحافظ عليه كما هو، وأن يعيد الى النفوس تفهمه وفهمه، وأن يذود عنه ويبعد ما ليس منه . وقد ورد « ان الله يبعث الى هذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها ».

والسنن الالهية لا تتبدل، والغرائز الانسانية تعمل عملها. وعلى القادة والمرشدين أن ينبهوا دائما الى هذه الظواهر ، والى العبرة بأحوال الماضين ، اقتـــداء بكتاب الله المبين ، سبحانه هو أحكم الحاكمين. وما أحسن ما قيل : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فان القلب القاسي بعيد عن الله ، ولا تنظروا الى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد ، والناس رجلان : مبتلى ، ومعافى ،

فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية

* « اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » :

هو تمثيل لأثر الذكر فى القلوب • والله الذى يحيى الارض بعد دثورها ودروسها فتنبت اذا تعهدها العامل بالحرث والعمل ، وتعهدها بالسقى ، أو أصابها الغيث ، يحيي القلوب الميتة اذا تعهدها العبد بالذكر وتدبر الآيات، وراضها على الصالح من الاعمال ، فتعود الى الرقة بعد القسوة ، وتعود الى الطاعة والانقياد بعد الغلظة والجفوة

« **قد بينا لكم الآيات** » : وهى الحجج الواضحة ، والدلائل الباهرة ، وضربنا لكم الأمثال لعلكم تعقلون وتأخذون بمقتضى أحكام العقل ، فتحافظوا على التكاليف الشرعية ، والاخلاق الراضية

* « إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » :

قرىء المصدقين والمصدقات بالتشديد والتخفيف ، وهما قراءتان صحيحتان ، وعلى قراءة التشديد يكون المعنى : ان الذين تصدقوا والذين أقرضوا ، وعلى قراءة التخفيف يكون المعنى : ان الذين آمنوا والذين أقرضوا

* « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » :

فى قوله سبحانه : « والشهداء عند ربهم » رأيان :

الأول : أنه مرتبط بما قبله وليس كلاما مبتدأ ، والمعنى على هذا : والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون عند ربهم ، وهم الشهداء عند ربهم ، فكل مؤمن صديق ، وكل مؤمن شهيد . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وهو شهيد ، وتلا هذه الآية . وانما كان المؤمن صديقا لأنه كثير الصدق ، وكان شهيدا لأن المؤمنين شهداء عند ربهم على أعمال العباد ، وهم العدول الذين تقبل شهادتهم . وينبغي أن يحمل الايمان فى هذه الحالة على الايمان الكامل . ثم بعد أن أخبر الله عن المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء ، أخبر بأن لهم أجرهم ونورهم ، أى لهم ثواب أعمالهم ونورهم الذين يهتدون به الى الجنة

والرأى الثانى : أنه كلام مستأنف وقد انتهى الأول عند قوله : هم الصديقون ، وابتدأ هنا قوله : والشهداء . والمعنى على هذا : المؤمنون هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، نظير قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » . قال ابن جرير : والظاهر أن الايمان لا يوجب اسم الشهداء ، فهذا غير متعارف ، والرأى الثانى أولى ، وأنا أيضا أرى هذا ، وأزيد على ذلك أن الله سبحانه فى هذه الآيات أراد أن يعطى حكم أربعة أصناف : حكم المتقين المصدقين ، وحكم المؤمنين ، وحكم الشهداء ، وقد أشار اليهم سابقا بقوله : « لا يستوى منكم

من أنفق من قبل الفتح وقاتل،أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » ، فهناك من قاتل قبل الفتح وبعده لم يعط حكما اذا لم يجعل قوله : « والشهداء عند ربهم » مستأنفا كما هو الرأى الأول ، أما اذا جعل مستأنفا كما هو الرأى الثانى فان هذا الصنف يكون قد أخذ حكما٠والصنف الرابع هم الكفار ، وقد حكم عليهم فى الآية الآتية :

* « وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » :

هؤلاء الذين كفروا أشير اليهم بقوله سبحانه : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » ، كما أشير الى الشهداء بقوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ٠٠٠ »

وبعد أن بين الله سبحانه أحوال المؤمنين ، وأحوال المقرضين ، وأحوال الشهداء ، بين فى هذه الآية أحوال المكذبين بالله وآياته ، وحكم عليهم بأنهم أصحاب الجحيم ، يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب ، لا يفارقونها بل يخلدون فيها ما دامت السموات والارض ، الا ما شاء ربك، ان ربك فعال لما يريد

* « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ » :

قيل : **اللعب** : ما رغب فى الدنيا ، **واللهو** : ما الهى عن الآخرة • وقال مجاهد : كل لعب لهو ، لأنه يلهى عن الآخرة

وهاج : تحرك الى أقصى ما يتأتى له ، أو جف بعد الخضرة

والحطام : الهشيم المتكسر

والمقصود من هذه الآيات تحقير أمر الدنيا ، وتعظيم أمر الآخرة • والدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، والعاقل لا يبيع الباقى بالفانى • واللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر أمور محقرات عند العقل لا يجوز أن تكون مقصدا للعاقل ، ويجب أن يكون مقصده الأسمى هو المغفرة والرضوان والنجاة من النار

فى الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما ، وأكثر ما يكون الأول للصبيان ، وأكثر ما يكون الثانى للشبان ، وأكثر ما تكون الزينة للنساء ومن فى حكمهن من الرجال • وفيها تفاخر بالأنساب والقدرة وغيرها من الصفات،وفيها مباراة فى الاكثار من المال والولد والجيوش ، وكل هذه عرضة للتبدل والزوال ، فهى فانية ، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو واللذات ، على أنها سريعة الانقضاء ، مذهبة للعمر وللمال • وقد ضرب الله مثلا للدنيا فى سرعة تقضيها وقلة جدواها ، وفى بهجتها عند اقبالها وعبوسها عند ادبارها ،

فقال : انها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر ويعجب به الزراع ، ثم يجف ويصفر ويكون هشيما وحطاما متكسرا ، فى الطور الأول جمال وفتنة وسحر للنـــاظرين ، وبهجة للنفس وراحة للعين ، وأنس لا يقدر قدره ، لكنهذا الطور لا يدوم بل ينقضى بسرعة ، ويحل الطور الثانى ، وفيــه يزول الجمال والسحر والفتنة وراحة العين ، ثم لا يبقى من تلك الأعواد البديعة الا حطام لا تستريح النفس الى رؤيته وتذروه الرياح

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور اذا ألهتك عن طلب الآخرة ، أما اذا دعتك الى رضوان الله فنعم المتــاع . لكن الله سبحانه لما علم حب النفوس لزخرف الدنيا ، وعلم فتنتها واعجاب الخلق بها ، أراد أن يحط من قدرها لتضعف شدة الرغبة فيها ، وشدة الحرص عليها ، وليوجه الناس الى الآخرة بالاحسان فى طلب الدنيا ، فهى ذات صورتين: صورة منهما على هذه الصفة التى ذكرها الله سبحانه هنا ، وصورة أخرى جميلة أشير اليها بقوله سبحانه : « سابقوا الى مغفرة » ، وسيأتى بيان ذلك . هى متاع الغرور ، أى الغفلة عن الآخرة،وعما ينبغى أن يكون عليه الحريص اليقظ

* « سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » :

سارعوا الى الاعمال الصالحة التى هى أسباب مغفرةالله، وأسباب دخول الجنة ، مسارعة المتسابقين . وقد وصفت الجنة بأن عرضها كعرض السماء والارض مجتمعتين ، واذا

كان العرض كذلك كان الطول أكثر امتداداً . والظاهر أن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع فى أفكارهم ونفوسهم، وأوسع شىء يقع فى نفوسهم هو مقدار السماء والارض . وقد جاء فى آية آل عمران : « وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » ، ولا أرى فرقا بين الآيتين فيما تدلان عليه من السعة، لأن السماء تطلق ويراد بها السموات كما فى قوله سبحانه : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات »، فتكون الآية فى آل عمران قرينة على أن المراد بالسماء هنا الجمع . هذا اذا كان الغرض التحديد ، أما اذا كان الغرض افادة السعة لا غير فالأمر ظاهر . وقال بعض المفسرين : ان البشارة هنا أعم من البشارة فى سورة آل عمران ، لأن البشارة هنا للمؤمنين، وفى آل عمران للمتقين . ولا أرى ذلك . ويجب أن يحمل المؤمن هنا على المتقى ، لأن قواعد الاسلام العامة تقضى بأن عصاة المؤمنين يدخلون النار أولا ويطهرون فيها ثم يدخلون الجنة ، فالجنة لم تعد لهم وانما أعدت للمتقين ، واذا جاز أن يقال ان الجنة أعدت لهم بعد دخولهم النار ، جاز أن يقال ان النار أعدت لهم لأنهم سيدخلونها أولا . وحمل الآيات بعضها على بعض أولى

« **ذلك فضل الله** » : من الناس من قال : ان نعيم الجنة تفضل محض من الله سبحانه غير مستحق بالعمل، واستدل بهذه الآية ، ومن الناس من قال انه مستحق بالعمل . وعندى أنه لا تنافى بين كونه مستحقا وكونه فضلا ، فالذى جعله مستحقا هو الله صاحب الفضل فى ربط نعيم الجنة بالاعمال الصالحة ، وهو الذى قال : « ورحمتي وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون » ، وهو الذى قال : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، ووعده

حق لا يتخلف ، وهذا الوعد فضل منه ، والله ذو الفضل العظيم ، واذاكان فضله عظيما فثوابه عظيم ، وعطاؤه عظيم

وصف الله سبحانه الدنيا فى الآية السابقة بأنها لعب ولهو ، وأنها زينة وتفاخر وتكاثر ، وأنها متاع الغرور ، وطلب فى هذه الآية المسابقة الى الاعمال الصالحة الموصلة الى الجنة والمغفرة ، وهذه المسابقة فى الدنيا لا شك ، واذا كان ذلك كذلك فللدنيا صورتان : صورة جد تكون فيها مطية الجنة ومزرعة الآخرة ، وتكون ثمراتها نعيم الله ورضوانه ومغفرته ، اذا أخلص العبد فى العمل ، واستمتع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ولازم حدود الله لم يتعدها ، وأدى حقوق المال كاملة ، وصورة لعب ولهو تكون فيها الدنيا مطية النار ، وتكون ثمرتها غضب الله وسخطه ، اذا كاثر بالأموال والأولاد ، وافتخر واختال ، وبخل وحمل الناس على البخل ، واسترسل فى الشهوات ، وأضاع حقوق الله وتعدى حدوده ، وظلم عباد الله فجمع المال من غير وجهه ثم اكتنزه • فالدنيا متاع الغرور ، والدنيا متاع العقل والشرع ، غير أن أكثر الخلق لما كانوا مشغولين بالدنيا على الصورة التى صورها بها القرآن فى هذه الآية ، أطلق الله فيها القول اطلاقا ، وجاء بهذه الصورة على سبيل النص • ولما كان القليلون منهم هم المشغولين بالدنيا على وجهها الآخر ، حبب الله اليهم التسابق فى طلب المغفرة ، ووعدهم الجنة،وكأن هذا اشارة الى الصورة الثانية من صور الدنيا

* « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

اختصت المصيبة عرفا بالنائبة ، ومنه « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ، وقد استعمل أصاب فى الخير أيضا كما استعمل فى الشر ، ومنه « ان تصبك حسنة تسؤهم ، وان تصبك مصيبة ... » ، « ولئن أصابكم فضل من الله » . والاصابة فى الخير اعتبرت بالصوب وهو المطر ، وفى الشر اعتبرت باصابة السهم ، وكلاهما يرجع الى أصل واحد . ومعنى **برأ** : خلق

ذهب أكثر المفسرين الى حمل المصيبة فى الآية على الشر فقط اعتبارا بالأشهر فيها وباختصاصها عرفا بالنائبة ، وفسروا المصـــيبة فى الأرض بقحط المطر وآفات الزروع والثمار وغلاء الأسعار وما أشبهذلك ، وفسروا المصيبة فى الأنفس بالامراض والاوجاع والفقر وفقد الأهل والولد ، والكفر والمعاصى

وذهب بعضهم الى أن المصيـــبة هنا تعم الخير والشر ، بدليلقوله سبحانه : «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ، وأرى ترجيح هذا الرأى الآخر ، لان الكتاب سواء أريد به علم الله سبحانه أو أريد به شىء غير العلم ، وهو ما يسمى اللوح ، شامل لسعادات الأنفس وشقائها ، وخيرات الأرض وشرورها ، ولا وجه لتخصيص الشرور بأنها ثابتة فى الكتاب

وانما خصصت الأرض والأنفس بالذكر مع أن علم الله شامل لما فى السموات والارض،ولما هو فى الجنة والنار،لان ذلك هو الذى يعنينا الحديث عنه ، وهو الذى نشاهده . لكن اذا أريد بالكتاب ما يسمى اللوح المحفوظ فلا يمكنأن يشمل نعيم الجنة وعذاب النار مما هو غير متناه

كل شىء من الخير والشر فى الأرض والأنفس والابدان

ثابت فى علم الله قبل أن يخلق الارض والأنفس والأبدان، وقبل أن يخلق الخير والشر ، بل قبل أن يخلق العالم ويفطر السموات والأرض • وهذه الحلقات جميعها فى سلسلة الوجود من أول حلقة الى آخر حلقة معلومة لله سبحانه ، مربوطة بأسباب وسنن لا تتبدل ولا تتغير ، كما أن العلم لا يتبدل ولا يتغير ، ولها نظام عام شامل مقدر هو خير كله، والشر يعرض للأفراد كما يعرض الخير • ذلك كله مكتوب فى لوح العلم ، وذلك على الله يسير ، بل هو واجب لذاته سبحانه ، ولا يمكن الا أن يكون معلوما مقدرا

* « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » :

الأسى : الحزن • وحقيقته اتباع الفائت بالغم

والخيلاء : التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للانسان فى نفسه

والفخر : المباهاة فى الأشياء الخارجة عن الانسان كالمال والجاه • **والفخور** : صيغة تكثير من الفخر

واللام فى « لكيلا تأسوا » تفيد لغة جعل أول الكلام سببا لآخره

والمعنى أن الله سبحانه اخبر بأن ما يصيب الأرض والأنفس ثابت فى كتاب لكيلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخيرات ، ويشتد فرحكم بما أعطاكموه . والله سبحانه لا يطلب أن لا يكون فرح ، وأن لا يكون حزن ، بل يطلب أن لا يكون فرح يطغى ويكون معه الأشر والبطر ، وأن لا يكون حزن يهلك النفس ويفوت عليها ثواب ما سلب من النعمة . أما الفرح بالنعمة والشكر عليها فغير مذموم ، واما الحزن الطبيعى

الذى هو غريزة النفس ، والذى لا يلهيها عن تذكر ثواب الله بالصبر ، فلا يمكن النهى عنه ، وليس أحد الا وهو يفرح ويحزن ، ولكن الأمر كما قيل : اجعلوا للمصيبة صبرا ، وللخير شكرا

والله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم ، لأن الكبر والفخر يبعدان عن تذكر نعمة الله ، ويؤذيان عباد الله . ومن علم أن كل شيء مقدر له فى كتاب ، وأن كل نعمة فمن الله ، توجه بالشكر اليه ، ومن الشكر الاحسان الى عباده بالتواضع واظهار الخشوع لله سبحانه ، وكذلك لا يشتد فرحه بما يناله من الخير ، ولا يشتد حزنه على ما يصيبه من الشر ، خصوصا اذا تذكر جزاء الصابرين على ما أصابهم ، وتذكر أن عليهم صلوات الله ورحماته . وهذه العقيدة : عقيدة أن كل شيء من عند الله سبحانه ، تحفز النفوس الى طلب الآخرة ، والى التسامح ، والبعد عن المشاحة فى التعامل ، وترك الحسد والحقد . ومن لم يفرح لموجود ولم يحزن لمفقود ، يهون عليه أمر الدنيا ، ويأخذها من ناحية الخير التى تؤدى الى مغفرة الله ورضوانه

* « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » :

الذين يبخلون، بدل من كل مختال، ذلك أن المختال الفخور الذى يطغيه الرزق ويرى المال نعمة توجب العز ، يحرص عليه غالبا ، ويرى الحرص فضيلة يدعو الناس اليها ، فتراه يبخل ، وتراه يأمر الناس بالبخل ، ويعده مذهبا ورأيا محمودا يستحق الدعوة والاحتجاج له ، لكن الله غنى عن الانفاق ، محمود فى ذاته ، لا يضره اعراض الناس عن الانفاق ،

ولا يضره الا يتقرب الناس اليه بالبــــذل ، فمن يتول منهم ويعرض عن أوامره فهو الظالم لنفسه ، وهو الذى حرمهـا الأجر ، والله غنى حميد

وهنا شيء لا ارى ان افوته ، وارى من الواجب ان اقول كلمة فيه :

اكثر العلماء من التعلق بهذه الآيات « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبراها ، ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » ، والاستدلال بهـا على مذاهبهم ، فالجبرية وجدوا فيها دليلا على الجبر ، لان ما هو فى كتاب الله لا يمكن ان يتخلف ، ولا بد من حصوله ، فلا يقدر العبد على مخالفته، والقدرية وجدوا فى قوله «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » مستندا للاختيار والتمكن من فعل الفرح وتركه والحزن وتركه . والمرتاض على الاستدلال ، والملم بقواعد الدين العامة ، ومن تهديه الفطرة والبديهة الى الحق ، يعجب من الجبرية ويرثى لهم ، كما يشفق على القدرية

الأمة مجمعة على شمول علم الله سبحانه للأشياء ، لا فرق فى ذلك بين قدرى وجبرى ، ومجمعة على أن علمه حق مطابق للواقع ، وسيطابق الواقع كلما برز منه شيء الى الوجود ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانقلب علمه جهلا ، ولو لم يكن كذلك لكان جاهلا ، تعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون

والأمة مجمعة على فائدة ارسال الرسل ، والله يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، فهو يقرر انه لا يعذب احدا الا بعد قطع العذر ، وبعد البيان ونصب الأدلة « ان علينـا للهدى وان لنا للآخرة والاولى » . والامم جميعها لا فرق بين المتدينين وغيرهم مجمعون على فائدة التربيـة والتهذيب ،

وفائدة القدوة الصالحة، وعلى ضرورة وضع القوانين الزاجرة لحماية الناس بعضهم من بعض

هذا كله يوجب بلا ريب اعتراف البشر واعتراف الأديان بوجود الاختيار عند الانسان ، وبأنه يستطيع اختيار احد الطريقين : طريق الخير او طريق الشر . ويؤكد هذا ايضا قول الله سبحانه : « وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة » الى آخر الآية ، وقول الله سبحانه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، وقول الله سبحانه : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقد وعد المتقين الجنة ، ووعد العصاة النار. ولا شبهة بعد هذا فى ان القول بالجبر يصادم العقل ، ويناقض ما اجمعت عليه الامم ، ويهدم حكمة ارسال الرسل وحكمة الشرائع ، سواء اكانت وضعية أم سماوية ، والقائلون به يجب عليهم أن يتركوا انفسهم فى الحياة تسيرها الرياح كما تشاء ، وليس لهم أن يتعلقوا بقواعد التهذيب ، وليس لهم أن يلوموا فاسقا ولا كافرا ، ولا مرتكب اية كبيرة او اية معصية . وهذا قول نعوذ بالله منه ومن شروره . واتفاق الأمم جميعها فى القديم والحديث على خلافه دليل على انه مناقض للفطرة كما هو مناقض للعقل

نعود الى الحديث عن علم الله وعن اثبات كل شيء فى الكتاب ، فنقول : ان علم الله سبحانه يجب أن تتبعه ارادته ، والعلم صفة انكشافية لا الزام فيها

والعلم الصحيح هو المطابق للمعلوم مطابقة تامة ، فلا أثر لعلم الله سبحانه فى أفعال العباد ، لأن أفعال العباد لا تتبعه ، بل علم الله هو الذى يتبع أفعال العباد ، والله سبحانه فى مرتبة وجوده قبل أن يخلق الخلق قدر الخلق ووضع هذا النظام التام الذى هو خير كله ، والذى يعرض فيه الخير والشر للأفراد ، أما النظام نفسه فلا يعرض له

الشر بحال ، لأنه هو الصادر عن الجود ، وعن الحكمة ، وعن العلم التام ، وقد علم الله سبحانه ما سيختاره كل أحد من خلقه فوضعه في كتاب ، وفعل العبد تابع لاختياره المحض لا ارتباط له بالعلم الا ذلك الارتباط الحاصل بين العلم والمعلوم ، واذا كان كذلك فلا دلالة فى الآية على الجبر، وهى كغيرها قد تدل على الاختيار

لكن القدر سلوى المؤمن ، والمؤمن مطلوب منه أن يتحرى وجوه الصواب ، ويروض نفسه على الفكر وسؤال أهل الذكر ، وعلى التدبر وأخذ الحيطة ، وتقليب وجوه الرأى ، ومشاورة العقلاء ، فاذا قدر له أن يصيب الخير ووجه الحكمة وينال النعمة ، طلب الله سبحانه منه ألا يطغيه الفرح وتطغيه النعمة ، وأن يذكر أن هذه النعمة ثابتة فى كتاب لم يكن هناك بد من حصولها ، ولم يكن هناك بد من اختيارها اذا كانت مما تقع تحت الاختيار ، واذا قدر له الاخرى وأصابه شر ، طلب الله منه ألا تذهب نفسه حسرات ، وأن لا يلهيه الحزن عن تذكر ثواب الله ، وأن يذكر أن هذا مقدر فى كتاب، ولم يكن هناك مفر منه ، ولم يكن هناك بد من أن يختاره اذا كان ذلك مما يقع تحت الاختيار

والحق أن هذا تهذيب من الله سبحانه ، اذا روعى كان المؤمن دائما رضى النفس ، صابرا على البلاء ، غير فخور بالنعمة ، وكان مطمئنا ، هادىء البال ، مثلوج الصدر ، غير ضجر بالحياة ولا برم بها ، ولا مزهو بالنعم يدل على الناس بما أعطاه الله

اشرت فيما مضى الى أن هذا النظام كله خير اذ هو صادر عن الجواد الكريم، وكله حكمة لأنه صادر عن العليم الحكيم، فلا يعرض له الشر قط ، وكله خير . واذا كان هناك فى الوجود شر فذلك الشر يعرض للأفراد، ويعرض للجزئيات.

واذا لاحظنا هذا أمكن أن تعرض لنا شبهة الجبر ، وهـذه الشبهة لا يمكن أن تعرض من ناحية التسجيل فى الكتاب، ولا من ناحية أى دليل آخر غير هذا ، لكن عروض الشبهة ينفيه العقل ، والأدلة القائمة ، واجماع الأمم ، والفطرة . والبحث عن التوفيق بين ما تهدى اليه الفطرة ، وما يهدى اليه العقل من أن النظام خير كله ، بحث عن سر القـدر لا يجوز للمؤمن أن يدخل فيه وأن يعدو طوره

* « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » :

الوزن : معرفة قدر الشيء . والمتعارف فى الوزن عنـد العامة ما يقدر بالقبان ونحوه . وقوله تعـالى : « وأقيموا الوزن بالقسط » أمر بمراعاة المعدلة فى جميع ما يتحراه الانسان من الأفعال والأقوال

والقسط : النصيب بالعدل. **والبؤس والباس** : الشدة والمكروه

والغيب : يستعمل فى كل غائب عن الحواس وعما يغيب عن علم الانسان . ويقال للشيء غيب وغائب باعتبار الناس لا باعتباره سبحانه وتعالى ، فانه لا يغيب عنه شيء

طلب الله سبحانه فى الآيات السابقة الايمان به والايمان برسله ، وبين أن ما يدعو اليه الرسل منزل من عنـده ، أراد الله سبحانه به اخراج الناس من الظلمات الى النـور

رأفة منه ورحمة بهم ، وفى هـذه الآيات بين الغرض من ارسال الرسـل وانزال الكتب والموازين ، وهو أن يقوم الناس بالعدل ، فيأخذ كل واحـد حقه لا غير ويعطى حق غيره . وما اشتملت عليه الكتب السماوية جميعه ، سـواء أكان متعلقا بالعقائد أم بالأخلاق أم بنظام الأسرة والمجتمع أم بقواعد التعامل بين الأفراد والجماعات ، عدل كله ، وحق كله ، وفى العمل به نصفة وقيـام بالقسط . فاذا نزهت الله سبحانه عما لا يليق به وآمنت به وبرسله ، فذلك عدل واعطاء للحق . واذا تخلقت بالأخلاق الحقة الفاضلة ، فقد زكيت نفسك وأعطيتها حقها . ويتبع ذلك أن تعامل الناس بالحسنى وتعطيهم حقهم . واذا عاملت الناس على وفق أحكام الله المنزلة ، فقد أعطيتهم حقهم وأخذت حقك وقمت بالقسط

أرسل الله الرسـل بالبينات والأدلة والمعجزات الدالة على نبوتهم ، وأنزل الكتب لتكون معهم يدعون النـاس الى هديها ، وفى هذه الكتب مقاييس العدل وموازينه ، وهذه المقاييس والقواعد هى الميزان الذى أنزله الله سـبحانه ، فليس الميزان شيئا آخر ماديا غير ما فى الكتب

أنزل الله الميزان ليعدل الناس ، كما أنزل الحديد ، أى خلقه وجعله ذا بأس وشدة ونكاية، وأودع فيه منافع لا عدد لها ، ليستعمله الناس فيما خلق له ، وليستعمله الناس فى النكاية بأعداء الله الظالمين عباده ، وفى الانتصـار للحق ، حتى يعلم الله من ينصره وينصر رسله وهو غائب لا يبصره . والله قوى عزيز . والقوى هو الذى لا يلحقه ضعف فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فلا يمسه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا عجز . والعزيز هو الذى لا يقهر ولا يغلب ولا يعارض

فسرنا انزال الحـديد بخلقه وتهيئته ، وذلك مروى عن الحسن ، ونظيره قوله سبحانه : « وأنزل لكم من الأنعـام

ثمانية أزواج» ، وتبعنا فى تفسير الميزان جمهورا من العلماء. وعند الغزالى أنه ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته

ذكر الله سبحانه الكتاب والميزان والحديد، وقرنها بعضها ببعض ، فالكتاب اشارة الى الأحكام المقتضية للعدل والانصاف ، والميزان اشارة الى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام ، والحديد اشارة الى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام اذا تمردوا، والله سبحانه وهو العليم الحكيم لا يضع للخلق من القوانين الا ما فيه مصلحتهم ، وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه ، وغيرهم لابد له من الوازع وهو سلطان الحاكم المشار اليه بالحديد ، ولذلك وجدت التعازير فى الاسلام ، ووجدت الحدود ، أما ترك الناس أحرارا من غير وازع فهو ضار بالمجتمع الانسانى ، وموجب للتراخى فى اقامة العدل واتباع القانون ، جرب هذا فى العصور المختلفة ، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه ، وعلم أن الامم التى لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت الى الدرك الأسفل ، وأضلتها الشهوات . وقد كانت درة عمر سلكا قويا للنظام الاسلامى، فلما رفعت ضعف ذلك الرباط

وقد ذكر الله للحديد فائدتين : الأولى : أن فيه البأس والشدة والنكاية ، فآلات الحروب جميعها منه أو تحتاج اليه ، وبخاصة اذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ، فمنه الرماح والسيوف والدروع قديما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات ، وسفن البحر على اختلاف أنواعها ، وعلى الاجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالا للبحث

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ،

فما من شيء من ضروريات الحياة أو كمالياتها الا وللحديد دخل فيه ، فهذه سفن الملاحة وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات،وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباخة والأكل ، وأدوات الزينة ، كل ذلك من الحديد ، أو يرجع اليه ، أو يحتاج اليه

امتن الله سبحانه على خلقه بالحديد ، ولم يمتن في هذا الموضع بما هو أغلى قيمة منه كالذهب والفضة ، لأنه أعم وجودا ، وأسهل تناولا ، وأكثر فائدة ، ومن نعمة الله سبحانه أن سهل كل ما تشتد اليه الحاجة وجعل وجوده أكثر . وأعظم الاشياء قيمة فى الحياة أكثرها وأسهلها تناولا ، وأحقر الاشياء قيمة فى الحياة أندرها وجوداوأغلاها ثمنا ، فما هى قيمة الجواهر الكريمة للحياة اذا قيست بالهواء والماء ، أو قيست بالبر والشعير ؟ وهكذا اذا نظرت الى الأطعمة وجدت ما هو لازم منها وضرورى ، أرخص مما هو غير لازم لزومه

بعد أن امتن الله بالكتب والميزان والحديد ، بين أنه قوى عزيز مستغن عن خلقه ، وأنه لم يفعل ذلك الا لاقامة العدل والدفاع عنه ، والدفاع عن العدل هو نصرة الله والرسول ، وبهذا البيان أعذر من لم ينصره ، وأشار الى أنه لا عذر له. وقد قال بعض الناس في قوله سبحانه : « وليعلم الله من ينصره ورسله » : أى وليعلم حزب الله ومتبعوه من ينصر الله ورسله ، فرارا من توهم أنه حدث له علم بعد أن لم يكن ، والواقع أنه عالم من ينصره قبل أن ينصره ، ولا داعى الى هذا ، فان المعنى : ليعلم من ينصره علما يتعلق به الجزاء، وذلك لا يكون الا بعد وقوع النصرة

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ »

نوح أول الرسل الى الأرض ، وابراهيم قد انتسب اليه أكثر الأنبياء ، وعظم في كل الاديان ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الأربعة : التوراة، والانجيل ، والزبور، والفرقان ، وهو من ذرية نوح أيضا ، فالنبـوة والكتاب لا تخرج عن ذريتهما ، ولذلك خصا بالذكر

وقوله سبحانه : « **فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون** » معناه أن بعض هذه الذرية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها ، والبعض فسق عن أمر ربه ، فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقى فيه وارتكب الاثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون

* « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » :

التقفية : جعل الشيء فى أثر الشيء على الاستمرار

والآثار : جمع اثر بالكسر ، تقول : خرجت على اثره أى عقبه

والرأفة والرحمة : اللين والشفقة

والرهبانية : الخصال والأفعال المنسـوبة الى الرهبان بفتح الراء وهو الخائف ، فعلان من رهب كخشيان من خشي

والابتداع : ابتداء أمر لم يحتذ فيه على مثال . والبدعة منه ، وسيأتي بيانها

ومعنى الآيات أن الله سبحانه أرسل عقب نوح وابراهيم على التتابع رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر الى عيسى فأعطاه كتابه المسمى بالانجيل ، وجعل الله فى قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عبـاده ، وجعلهم أيضا رحماء فيما بينهم ، كما كان المؤمنون فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زاد الله فى ألطافه معهم حتى قويت دواعيهم الى الطاعة والتشدد فى العبادة، فأحدثوا الرهبنة وابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومغفرته ، ولم يكتبها الله سبحانه عليهم . أحدثوا هذه الرهبنة فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ورعايتها، ولكنهم تركوها باطنا ، وضعفت عندهم دواعي التشدد فى الطاعة، فأخلوا بما عاهدوا الله عليه ونذروه، وبذلك فسقوا وخرجوا على العهد ، فليس لهم حظ من الأجر ، وهؤلاء كثيرون . أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد وحافظوا عليه فقد وفاهم الله أجرهم

ومعنى تلك الرهبانية التى ابتدعوها : تحمـل الكلف الزائدة على ما كلفوا به ، فهم قد زهدوا فى الدنيا ونسكوا، وحببت اليهم الخلوات واعتزال الخلق . لبسـوا الخشن ، وأكلوا الغليظ من الطعام ، وتركوا النسـاء ، وتعبدوا فى الكهوف والغيران ، وخلصوا أنفسهم للعبادة متحملين ضروب العنت والمشقة حبا فى طاعة الله

هذه أوصاف أتباع عيسى كما وصفهم القرآن ، فما الذى

بقى من أوصافهم وأوصاف أتباع محمد ؟ ندع هذا تجيب
عليه الحوادث ، ويجيب عليه الواقع

وقوله سبحانه : « **ابتدعوها** » اما صفة لرهبانية ، أو
مفسر لعامل محذوف تقديره : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها
ابتغاء رضوان الله • والاستثناء فى قوله : « الا ابتغاء
رضوان الله » منقطع ، ومعناه لكن ابتدعوها

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ . يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » :

من الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بالأنبياء قبل محمد
صلى الله عليه وسلم ، طلب اليهم أن يؤمنوا به ، ووعدوا
بنصيبين من الأجر : نصيب على الايمان بالأنبياء قبله ،
ونصيب على الايمان به ، ووعدوا أيضا ذلك النور الذى
يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة هاديا لهم الى الجنة ، ووعدوا
المغفرة على ما فرط منهم من العصيان • ومن الممكن أن يكون
الخطاب لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، طلب اليهم
التقوى والاستمرار على الايمان، ووعدوا بنصيبين من الأجر
أيضا : نصيب على ايمانهم به ونصيب على ايمانهم بالأنبياء
قبله ، كما وعدوا النور والمغفرة

* « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » :

اللام فى « لئلا يعلم » زائدة ، بدليل القراءة الثانية : ليعلم أو لكى يعلم

كان بنو اسرائيل يقولون : آن الوحى والرسالة فيهم ، والشرع والكتب لهم وحدهم ، خصوا بهذا كله ، وموسى آخر الأنبياء لا تنسخ شريعته • فنفى الله سبحانه هذه المزاعم ، وبين أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، ولا يملك أحد أن يخص به واحدا أو يخص به أمة ، فهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم أو بغيرهم ، ولا يملكون حصر الرسالة فيهم

نفى الله هذه المزاعم حيث طلب اليهم أن يؤمنوا بمحمد ، وبين لهم أنهم لا ينالون النور والمغفرة الا بالايمان به ، أو حيث طلب من أمة محمد الاستمرار على الايمان به ، وبين لهم أنهم لا ينالون المغفرة الا بذلك • وعلى كلا الحالين فهناك فضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ثابت من الله ، والاشعار بهذا الفضل اعلام لبنى آسرائيل وغيرهم بأنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأنه صاحب الفضل العظيم

لم يذم الله سبحانه أتباع عيسى على الابتداع ، لكنه ذمهم على عدم رعايته ، فهل الشأن فى الاسلام كهذا أو للبدعة شأن آخر ؟

عن أبى وائل عن عبد الله قال : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا طويلا وقال : هذا سبيل الله، ثم خط لنا خطوطا أخرى عن يمينه وعن يساره وقال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، ثم تلا «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »

وعنه صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا ما ليس

منه فهو رد . أما بعد فان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »

وكان عمر رضي‌الله عنه يقول : « انما هما اثنتان : الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدى هدى محمد،ألا واياكم ومحدثات الأمور فان شر الأمور محدثاتها، ان كل محدثة بدعة »

وقال مالك : « من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة . والمبتدع باحداثه جديدا أنزل نفسه منزلة الشارع »

فهذا يدل على ذم البدعة فى الاسلام ، لكن تمييزالبدعة من غيرها قد يكون سهلا وقد يدق ، الا أنه يجب ألا يغيب عن الفكر هذه القاعدة ، وهى أن العبادات من الأمور التى وضعها الله سبحانه لمصلحة عباده ، فلا يجوز أن يزاد فى العبادة شىء على ما ورد به الشرع ، فلا تستحدث عبادة جديدة ، ولا يزاد شىء فى كمية عبادة مشروعة أو فى كيفيتها وهيئتها ، ولا يلتزم وقت معين فى عبادة لم يرد فيها تعيين

وكما تكون البدعة فى احداث جديد، تكون فى ترك شىء من الاشياء المباحة على سبيل التدين والتعبد ، كترك نوع من الأطعمة ونوع من اللباس أباحه الشارع لكنه تركه زهدا وقصد بذلك العبادة ، ففى هذه الحالة وضع نفسه منزلة الشارع فى اعتبار الترك عبادة ، والشارع لم يشرع ذلك الا فيما عينه ، لكنه اذا ترك لا على نية العبادة لم يكن الترك بدعة . وأهم خصائص البدعة قصد التعبد والتدين فيما أحدث ، سواء أكان فعلا أم تركا

ومادة بدع تدل على الاختراع على غير مثال سابق ، ومن ذلك قوله سبحانه : «بديع السموات والأرض» أى مخترعها

على غير مثال سابق متقدم ، وقوله سبحانه : « قل ما كنت بدعا من الرسل » معناه : ما كنت أول من جاء برسالة من عند الله . وبناء على هذا يقال : ابتدع فلان بدعة : أى اخترع طريقة لم يسبقه اليها سابق ، ثم خصت البدعة فى لسان الشرع بعمل لا يوجد دليل عليه من الشرع ، على أن يقصد بهذا العمل المبالغة فى التعبد ، وعلى أن يقصد به مضاهاة الأمور الشرعية ، ويلبس به على الناس ، ويوهم واضعه أن له أصلا فى الشريعة

بناء على هذا لا تشمل البدعة شيئا مما أحدثه الناس لصالحهم الدنيوية النافعة فى الزراعة والتجارة والأكل والملبس والحروب وطرق المواصلات وطرق نقل الأخبار ، ولا يكون استعمال شىء من هذا ابتداعا ، وانما هو انتفاع بمباح ، وبزينة أخرجها الله لعباده

وهناك أمور يعرض لها أن تكون بدعة وأن لا تكون بدعة، مثلا : الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وبيوم الهجرة وبالمحمل ، اذا فعلت هذه على أنها عبادة وتدين كانت بدعة بلا شبهة ، لأنه احداث عبادة لم تكن ولم يؤذن فيها ، أما اذا فعلت على سبيل العادة ، وعلى أن الاحتفال بالهجرة وبمولده صلى الله عليه وسلم احتفال بذكريات عزيزة كانت سببا للخير وموجبة للشكر ، لتنبعث نفس المؤمن الى التمسك بالهدى وبالخلق الكريم ، لم تكن بدعة لأنه لم يقصد بها التدين ، ولم يرد احداث شىء فى الدين. لكن اذا حفت هذه المحدثات التى ليست بدعا بما هو بدعة، وبما هو مخالف للشريعة ، حرمت ، لما هو ملابس لها من البدع ، ولما هو ملابس لها من المعاصى. وكل معصية فشت لا تسمى بدعة ، فجميع ما يقع فى الأسواق والمجتمعات والمساجد ، وكل ما أطلق الناس لأنفسهم فيه العنان مما

هو مخالف لقواعد الشريعة ، لا يسمى بدعة ، وانما هي معاص ومحرمات

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيرا على معرفة البدعة . وقد قلنا ان أهم المميزات والخواص أن يحدث الشيء على أنه دين يتعبد به ، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرب الى الله سبحانه به

هناك أمور قد تظن بدعا وهي عبادة ، مثلا : تدوين الحديث ، وتدوين اللغة ، ودراسة علم الكلام ، والمنطق ، ودراسة جميع المعارف النافعة ، هذه اخترعت على غير مثال سابق مع أن المسلمين يعتقدون أنها عبادات ، وفي الحق أنها عبادات ، وسبب ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » والفقه في الدين موقوف بلا شك على الاحاطة باللغة ، والحرص على أن تكون سليمة موقوف على التدوين ، وحماية العقائد الاسلامية والحجاج للايمان بالله والرسل ، وأصله موجود في الكتاب ، موقوف على دراسة الكلام والمنطق ، فلهذه الاشياء سند من قواعد الدين العامة ، وسند من المصالح المرسلة ، وخاصة البدعة ألا يكون لها سند

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

* « وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » :

اخبر الله سبحانه فى هذه الآيات بأن الانسان فى خسر وهلاك ، الا من آمن وعمل صالحا ، وتواصى بالحق ، وتواصى بالصبر ، واقسم على هذا الخبر بالعصر

والعصر : يطلق ويراد به الدهر ، وهو جملة الزمان الذى تقع الحوادث فيه . ويطلق ويراد به جزء معين منه ، وهو وقت العشى الذى هو وقت صلاة العصر المعروفة

والخسر والخسران : ذهاب رأس المال او انتقاصه . وقد ينسب الى الانسان فيقال : خسر فلان ، وقد ينسب الى فعله فيقال : خسرت تجارته . واكثر ما يقال الخسران فى المقتنيات الخارجة عن الشخص كالمال ، وقد يقال على الأحوال النفسية والمعنوية كالايمان والثواب . وكل خسران ذكر فى القرآن فقد اشير به الى تعاطى ما يخف به الميزان يوم القيامة

وقد اختلف العلماء فى العصر الذى اقسم الله به ، فقال

قوم انه الدهر لاشتماله على الأعاجيب ، ففيه السراء والضراء ، والنعماء والبأساء ، والصحة والسقم ، والفرح والحزن ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، والهناء والشقاء ، والحرب والسلم ، والصداقة والعداوة

ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب الى الدهر ويشكون منه ويألمون ، حتى قيل :

كل من فى الكون يشكو دهره   ليت شعرى هذه الدنيا لمن

اراد الله سبحانه أن يبين بهذه القضية وهذا القسم ان الخسران من عمل الانسان فى الدهر لا من الدهر نفسه ، وان الدهر نفسه خلق ليكون موضعا للطاعة وظرفا للخير ، واذا كان يوجد الشر فيه فذلك من عمل الانسان لا من عمل الدهر

وقال قوم : ان المراد بالعصر وقت العشى ، لأن فيه صلاة العصر وهى الصلاة الوسطى الفاضلة التى خصها الله بالذكر فى قوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

وذهبت طائفة الى أن المراد وقت العشى ، لكنه ليس العشى فى يوم من الايام ، بل العشى فى الدهر كله جملة ، وذلك العشى من الدهر هو وقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فان هذا الوقت هو آخر الدهر ، كما ان العشى آخر اليوم . وقد استأنسوا لهذا بما روى من انه صلى الله عليه وسلم قال : « انما مثلكم ومثل من كان قبلكم من الأمم مثل رجل استأجر اجيرا فقال : من يعمل الى الظهر بقيراط ؟ فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل من الظهر الى العصر بقيراط ؟ فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل من العصر الى المغرب بقيراطين ؟ فعملتم انتم » . وعلى هذا يكون القسم بزمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، أقسم به كما اقسم بمكانه فى قوله : « لا اقسم بهذا البلد ، وانت حل بهذا البلد » تعظيما لزمانه ومكانه ، وفيه تعظيم له صلى الله

عليه وسلم وتشريف ، واعلاء واظهار لمكانته وجليل قدره

وأيا كان المراد من العصر فهو زمان مصنوع مخلوق ، اقسم الله به كما أقسم بالشمس والقمر ومواقع النجوم ، وبالليل والنهار والضحى ، وغير ذلك مما هو معروف . وهذه الأقسام جارية على العادة من توكيد الأخبار بالأقسام ، والله سبحانه غنى عن ذلك ، لكن المخاطبين الجاحدين فى حاجة اليها . ولا يلزم أن يكون القسم بشىء يخشى المقسم اذا حلف به وحنث أن يقع تحت المؤاخذة ، بل قد يكون القسم بشىء من هذا ، وهو لا يصح أن يكون فى جانب الله ، وقد يكون بشىء له قدر وقيمة فى ذاته وعند المقسم ويكون القسم به للدلالة على قدره وخطره ومكانته وفوائده والمصالح المرتبطة به ، واقسام الله سبحانه من هذا الباب

ونحن لا نشك فى ان اكثر ما أقسم الله سبحانه به لا يعد شيئا مذكورا اذا قيس قدره بجانب الله جل وعز ، فهى مخلوقة له ، لا تنال شرف الوجود الا باشراق الوجود عليها منه ، لكن موجوداته متفاوتة الأقدار ، ونوع أشرف من نوع ، وفرد من النوع أشرف من فرد آخر منه ، وقد ارتبطت بجميع الموجودات منافع ومصالح للعباد ، فأكثرها فائدة هو أعلاها قدرا ، فاذا أقسم الله سبحانه بشىء من مصنوعاته ، دل القسم على عظم ذلك الشىء وكثير منافعه ، وقد يدل القسم على تأكيد وجوده للرد على من ينكره ، كالقسم بيوم القيامة ، وقد يدل على غير ذلك بحسب مواقع القسم وما يتبع المقسم به من الصفات

ومعنى القضية التى أقسم الله سبحانه عليها ، أن كل فرد من أفراد الانسان ممن يصح أن يخاطب ويتوجه اليه التكليف ، ويصح أن يمدح ويذم ، ويثاب ويعاقب ، يحيط به الخسران بما ركب فيه من غرائز الشهوة وحب الانتقام ، والحرص على الدنيا ، وحب الجاه والشهرة والنفوذ

والاستعلاء ، وتلك الغرائز والصفات تدعوه دائما الى ركوب الجور وعدم القصد ، وسلوك سبيل الفساد ، ولا ينجيه الا الايمان الذى يدعو الى العمل الصالح والتواصى بالحق والصبر

استثنى الله سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولم يبين ما يجب الايمان به ، ولم يذكر ما هى الاعمال الصالحة المنجية ، ولا شبهة فى انه كان معروفا منذ بدء الرسالة ما يجب الايمان به ، ومنذ أرسل محمد صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الى الايمان بالله وحده والى الايمان باليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ، وهو مطابق لقوله تعالى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » ، وقوله : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » ، والايمان بالرسل والكتب يستلزم الايمان باليوم الآخر

وقد اشتمل القرآن فى سوره على بيان الاعمال الصالحة ، غير انها لم تكن كلها معروفة منذ بدء الرسالة ، ولم يتم بيانها الا بعد أن تم التشريع وتم نزول القرآن ، وقد كانت المشروعات تبدل بالنسخ ، ولم يستقر الأمر الا بعد أن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقر أمر التشريع ، وعلى ذلك فالاعمال الصالحة التى يطالب بها كل شخص هى المعروفة فى زمنه ، ومن الاعمال الصالحة ما جاء فى الأديان جميعها ولم يحصل فيه تبديل ، ومنها ما حصل التبديل فى صوره ولم يحصل فى جوهره

والايمان : تصديق واذعان لا أثر للريب فيه ، وهو عقد القلب الذى يلازمه طمأنينة النفس وزوال القلق . والايمان على هذه الصفة تصاحبه آثاره حتما ولا تنفك عنه الا حين

الغفلة ، اما الايمان الذى لا تلازمه الآثار فهو المنطوى على الشك والريب ، وهو ايمان لا يعتد الله سبحانه به : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »

والايمان الحق لا تنطوى حقيقته على الاعمال ، فهى زائدة عليه ، لكن مناط النجاة مرتبط بهما معا ، والايمان وحده غير كاف فى النجاة . والآية التى نفسرها نص قاطع فى ذلك لا يحتمل التأويل ، وهى وعيد كاف للزجر ، رادع للعصاة . ولا يجوز لأحد أن يتكل على غير الايمان والعمل الصالح . فالله سبحانه يخبر أن كل انسان واقع فى الخسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وقد شرط الله للنجاة بعد الايمان والعمل الصالح ، التواصي بالحق والتواصى بالصبر ، وبين أن كمال الانسان فى نفسه لا يكفى حتى يسعى الى كمال غيره ، فيوصي بالحق والصبر ، وفى هذا دلالة على أن الفرد ليس وحدة كاملة فى الجماعة ، بل هو جزء من وحدة ، وأن الوحدة هى الجماعة كلها ، وهى الجسد الذى اذا اشتكى عضو فيه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وكما يشين الفرد ان يكون ناقصا ، كذلك يشينه أن يكون فرد غيره فى الجماعة ناقصا

فانظروا الى هذه المبادىء السامية ، وانظروا الى ما عليه حال المسلمين اليوم ، تبصروا انه لا يوجد فى جميع المبادىء التى اعتنقها الناس ما هو أشرف وأعلى من هذه المبادىء التى ترقى بالنفس الانسانية الى التجرد من الأنانية والى حب الخير للعباد كلهم . ومصداق هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل ايمان احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، ذلك الحب الذى تطلبه النجاة ويطلبه كمال الايمان ، فهو حب لله ، وفى سبيل الله . وفى الحديث الشريف : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب

اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود الى الكفر كما يكره ان يلقى فى النار »

وفى الحق ان العاقل ليألم أشد الألم من البيئة الفاسدة ، ويحرص اشد الحرص على ازالة الفساد ، وزوال الفساد مزيل للألم ، وفيه شفاء للنفس الخيرة . فالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، نوع من العلاج للنفس الخيرة ، وطريق من طرق استجلاب السعادة والهناء . والله المطلع على السرائر والحريص على سعادة النفوس الخيرة المؤمنة ، جعل طريق علاجها وشفائها وطريق سعادتها ركنا من أركان النجاة . تبارك الله رب العالمين

نبين بعد هذا معنى الحق ، ومعنى الصبر

اما الحق : فأصله الموافقة والمطابقة . والاعتقاد الحق هو الاعتقاد المطابق لما عليه الشىء فى نفسه ، كالاعتقاد بأن الله واحد ، وانه عليم قدير ، وانه خلق الخلق ، والاعتقاد بالأنبياء والكتب والملائكة والدار الآخرة ، والاعتقاد بوجود مكة ، وأنها موطن الرسول الأمين ، والاعتقاد بأن الصلاة مفروضة والحج واجب

ويطلق الاعتقاد ايضا فى القول والفعل ، فالقول المطابق للواقع حق ، والفعل الذى وقع حسـبما يجب أن يقع فى الوقت الذى يجب أن يقع فعل حق

بعض ما يعتقد له وجود ذاتى وحقيقة ثابتة فى نفسه ، وبعض ما يعتقد ليس له وجود ذاتى ولم يكن وجوده الا بايجاب الشرع ووضعه . فحقيقة الصلاة لم توجد الا بوضع الشارع ، ووجوبها لم يثبت الا بايجاب الشارع ، وكذلك صفاتها وهيئاتها ، لكن الله ثابت بذاته ، وكذلك صفاته

والعقيدة الحقة تشمل الأمرين معا ، فعقيدة وحدة الله حقة ، وعقيدة وجوب الصلاة حقة ، لأن هنـاك حقيقـة للوجوب ثبتت بايجاب الشارع

والصبر : اصله الامساك فى ضيق ، تقول : صبرت الدابة اذا حبستها بلا علف ، ثم أطلق على حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، وتختلف أسماء الصبر باختلاف مواقعه ، فحبس النفس عند المصيبة يسمى صبرا ، وضده الجزع ، وحبس النفس عند القتال يسمى شجاعة ، وضدها الجبن ، وحبس النفس عن الكلام يسمى كتمانا . وفى الصبر عن المعاصى مشقة ، وفى الصبر على طاعة الله مشقة ، والتكاليف كلها مشتملة على المشقة وان كانت متفاوتة . والصبر من الأخلاق الأصيلة الكريمة ، وهو اساس جميع الفضائل ، ولذلك قيل انه نصف الايمان . وقد ذكره الله سبحانه أكثر من سبعين مرة فى القرآن ووعد بالجزاء الأوفى عليه : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

وبعد ، فهذه السورة الكريمة على قصرها لم تدع شيئا من الخير والحكمة لم تشتمل عليه ، وكما قال الشافعى رضى الله عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم . والحث على الحق يستدعى معرفة الحق بطرقه الصحيحة ، وفى ذلك حفز للهمم على طلب الحق ومعرفته ، وعلى طلب المعارف الصحيحة من وجهها . وجعل الاعمال الصالحة مناطا للنجاة يستدعى معرفة الاعمال الصالحة ، وفى ذلك كله تبصرة وعبرة . وهذه هى مبادىء الاسلام . نسال الله ان يلهم الناس الانتفاع بها

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ احدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ، ليذكر كل واحد صاحبه بما يجب أن يكون عليه . والله المستعان ، لا رب سواه ، عليه نتوكل ، ومنه نستمد التوفيق









هذا الكتاب

ليس أنفع فى المواسم الدينية من الأحاديث الروحية التى تستجيب لها النفس . ويطمئن اليها القلب ، ويتغذى منها الوجدان ، لأنها تصل ما بين المخلوق والخالق ، وتسمو بالمرء عن مشاغل الدنيا ، وترتفع بالروح الى المقامات العليا ، وتجعل الانسان انسانا ، وتربأ به عن أن يكون حيوانا ..!

وهذا ما هدف اليه المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر السابق . فقد عنى فى شهر رمضان من أعوام رياسته للأزهر الشريف بتفسير القرآن الكريم،فاجتمع من ذلك التفسير جانب نفيس رأينا أن نقدم منه تفسير خمس سور فى هذا الكتاب

وقد أتاح معالى مرتضى المراغى بك ـ نجل الفقيد العظيم ـ هذه الفرصة الذهبية للقراء بمناسبة شهر رمضان المبارك ، لأنه هو الشهر « الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

ولهذا التفسير مزايا خاصة ، فهو تفسير جديد شائق . وشرح واف جامع . وقد كتبه الشيخ المراغى بأسلوب عصرى سلس . وقارن فيه بين معانى القرآن وقضايا الاجتماع والعلم الحديث ، وبين فيه تلك الهداية الالهية التى تهذب البشر ، وتنير لهم ظلمات الحياة ، وتهديهم الى سواء السبيل